الحسين ايت بها

دروب التيه

رواية

عنوان الكتاب : دروب التيه
اسم الكاتب : الحسين ايت بها
التصنيف : الرواية
رقم الإيداع القانوني
الرقم المعياري الدولي ردمك
الطبعة : الأولى2023
لوحة الغلاف: الفنان التشكيلي المكي الوادي

غلاف وتنسيق : نور الدين الوادي
الناشر : جمعية عبور للثقافة والنشر
المطبعة : النور

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
يعبِّر المنشور عن آراء وقناعات مُبدِعه ،
وليس بالضرورة عن توجهات الجمعية.

سلسلة كتب تصدر عن
جمعية عبور للثقافة والنشر
للاتصال بالمطبعة :
imp.anoure@gmail.com

الحسين ايت بها

دروب التيه

رواية

إهداء

إلى صديقي المرحوم الناقد المغربي إبراهيم الحجري.

إلى الطفلة نعيمة الروحي شهيدة زاكورة والجنوب الشرقي

إلى الطفل ريان شهيد الوطن.

إلى كل جرح من أبناء هذا الوطن

إلى أصدقائي الأعزاء كل واحد باسمه.

قناع الديني في التجربة

الروائية للمغربي الحسين أيت بها

إن المتتبع لمسيرة الحسين ايت بها الإبداعية، ليخلص إلى نتيجة جلية، في سردياته على نحو خاص ، سواء من خلال منجزه الروائي الباكورة" هواجس الضياع" أو عبر عوالم عمله الجديد هذا والذي بين أيدينا وقد انتقى له وسوم" دروب التيه"، وهي خصيصة تكمن في التبئير على تيمة الضياع، أو التيه الذي ينتدب له الكاتب، شخوصا من واقع العوز والبؤس والفهم المغلوط للدين.

من هنا يمكن الحديث عن هيمنة أقنعة الديني في روايات الحسين أيت بها، من زوايا نزوع خطابها إلى الواقعية، وتوغل لغتها في قواميس المعاني القريبة، بل قد نذهب في زعمنا هذا إلى ما هو أبعد، اعتماد الروائي على الأنساق السيكولوجية المترعة بتنويع التقلبات في التفصايل العميقة والدقيقة، كأميل ما تكون الأسلوبية في السرد إلى تجارب دوستويفسكي، بما يصب انتهاءا في خلق التواصلية الساحرة التي من شأن اللعب السردي، ضمن أوراقها، أن يأسر المتلقي ويذهب بلبه إلى آخر

محطات المنجز، وكأنه يحقنه بفصول السرد جملة واحدة.

تقدم الرواية قيد الدرس، واقعا معرّيا لدهاليز الشعوذة والدجل تحت غطاء الديني واقنعته، في إحدى مناطق الجنوب المغربي، وبحبكة درامية تنشد إلى نقاط تداخل الفساد المجتمعي والسلطوي والعقائدي، في ارتكاز كبير على مناخات الغرائبي والمأساوي، إلاّ فيما ندر، من الآفاق المشرقة، المنتصرة لأهل الضمائر والأحرار وانقياء العقول والقلوب والغيارى على هذا الوطن الذي يعتبر الجهل، العدو الأول واللدود له.

رحلة سيكولوجية جاذبة ودامية، تتنقل بنا من خلالها الذات الساردة، من ازمة إنسانية إلى أخرى، تستهل بالتسامر الذي جمع الدركي محمد بثلة من الأصدقاء الاوفياء، مع كسر الرسميات الزائفة، حين يتعلق الامر بمصلحة العباد والبلاد، من بينهم النبيه سعيد، لمناقشة معضلة الاختطاف وقد باتت عنوانا بارزا وبعبعا يثير الرعب في الساكنة، اختطاف طفلة ،غياب الراعي الشاب منير، عودة المختار بومنجل بعد اختفاء طويل، وقد جن تماما من هول ما كابده خلف الجبل الكبير، في أرض الحفر الكبيرة والسراب والعطش، ليزيد من هلع اهل القرية، حدّ الأسطورة والتسليم بقوانين العالم السفلي الذي يفيض بالأرواح الشريرة والاشباح.

إلى غاية تزامن اطلاع القارئ والدركي المخلص والمسؤول محمد كما صديقه الوفي سعيد، بحقيقة مقتل منير، وهي حقيقة صادمة يسمعانها من فم المختار بومنجل،

بعد أن يكون قد استفاق من غيبوبته وتعافى من جنونه، حقيقة تفتي بأن هذا الأخير بريء من دم أعز وأجمل أصدقائه منير، في مشهد ختامي يؤكد ضلوع جماعة من سماسرة الإنسانية والدين في إزهاق روح منير النقية والبريئة، من اجل الحصول على الكنوز التي يعتقد أن المنطقة تزخر بها، وأن قرابينها من هؤلاء الأصفياء الذين نطلق عليهم بلساننا الدارج" الزوهريين".

نقتبس من طقوس الرواية، الآتي:

"أستفيق من حلمي مرعوبا، أشعر بخيانة العالم، وتواطؤ الشيخ اسعيد والقبيلة. وجسد عبد العزيز ملقى هناك في إهمال وقد انفصل عنه رأسه، وهو يضحك في غير اهتمام ولا مبالاة أشعر بالندم والجريمة. ومنجلي الأيسر البريء يلمع في الظلمة.

والعتمة تكسر غضب الصمت، ومنير الآن بدأ يضحك، كم هي جميلة تلك الضحكة البريئة؟ وذلك الثغر والأسنان البيضاء المستقيمة اللامعة، من يشعر بالخوف في حضرتك يا منير؟ من يشعر بالوحشة؟

أنا الآن جسد بلا روح، قلب بلا إحساس، أستيقظ لأحلم، وأحلم لأستيقظ، تشابهت أحلامي بالحقيقة.".

الناقد أحمد الشيخاوي

1

أنهيت كافة المهام الإدارية التي تراكمت على مكتبي خلال اليومين الماضيين، وأعددت نفسي للخروج من مركز الدرك. انتابتني نشوة عارمة لأنني سأتخلص، ولو إلى حين، مما علق بي من تعب مضن وشاق. علي الذهاب مبكرا قبل أذان العصر، حتى أستطيع تناول وجبة الغداء في المنزل وأخذ قيلولة خفيفة، قبل التوجه إلى المدينة.

كنت معتاداً على مغادرة البلدة من حين لآخر، أتوجه إلى الطريق الرئيسية مرتدياً الزي الرسمي الذي يضفي علي هبة معتبرة تليق برجل الدرك المحترم الذي كنته دائماً. هناك أنتظر سي أحمد رفيق دربي، ليقلني بسيارته الصغيرة المهترئة وينتشلني من هذا القفر الموحش.

كنت أنتظر عودته من عمله كالعادة ساعة أو بعض ساعة، وعندما ينهي أشغاله في المركز السياحي، يمر بهذا الطريق حيث يجدني في انتظاره. أفتح باب السيارة وأرمي بجسدي بجانبه في صمت يقطعه صديقي بما جد من طرائف السياح الأجانب الذين يفضلون اللجوء إلى هذه القرية طلباً للشمس والهواء النقي والتمتع بما يؤثثها من مظاهر تبدو لهم غرائبية أكثر مما ينبغي. تسلك

السيارة طريقها المعبد مزمجرة غاضبة وهي تبتعد عن معالم البلدة. يعم الصمت من جديد بيني وبين سي أحمد، وانشغل بالنظر من النافذة حتى أريح ذهني الذي أنهكته التحقيقات المتوالية طوال اليوم، مستمتعاً برؤية هذا الفضاء الشاسع من الحقول والتضاريس على جنبات الطريق، ويسرح بي الخيال، ليأخذني إلى سنوات مضت على علاقتي الأولى بهذه البلدة، عندما جرى تعييني هنا لأول مرة، كنت آنذاك غير مصدق أنني سأتحمل العيش والعمل هنا. كان القرار صادماً بعض الشيء، كنت أعتقد أنني لن أغادر مدينتي، لكن القدر خبأ لي أشياء لم تكن في الحسبان، لأكتشف بعد عدة سنوات أنني قد استطعت أن أتحمل أوضاعاً صعبة وقاسية، فرضتها علي الحياة في هذه المنطقة النائية عن كل نسمة حضارية، وها هي البلدة كما عرفتها لم تتغير، الجبال الشاهقة والوديان الشاسعة والحقول الخضراء من كل جانب، وأشجار النخيل الكثيفة قد غطت الأماكن كلها، فيخيل للرائي أنه في رحلة قصيرة إلى ثنايا فردوس أخضر تشكله شساعة المراعي بجانب الوادي والرمال الذهبية التي ما تفتأ تطحنها أقدام السائرين من البشر والبغال وعجلات السيارات التائهة في هذا المدار بلا انقطاع.

كان من عادتنا أن نستريح في مقهى الأنس، للتخلص من متاعب العمل. توقفت السيارة، اندفعت منها إلى الخارج لاستنشاق الهواء، بينما ركن صديقي سيارته بجانب المقهى، هنا سنجد الأصدقاء في انتظارنا وقد

اجتمعوا على براد شاي بالنعناع، وضحكاتهم الصاخبة تعبيرا عن غبطتهم بهذه اللحظات القصيرة التي تجمعنا.

ألقيت نظرة خاطفة على المقهى فوجدته كما هو، يحفه الهدوء الذي يضفي عليه مسحة من السكينة والطمأنينة، ولا يقطع ذلك الهدوء سوى أصوات الأصدقاء وثرثراتهم المستمرة، ونقاشاتهم التي تتناول أي شيء يتبادر إلى أذهانهم، ويدخل في صميم إدراكهم واهتماماتهم التي لا تخرج عن الأحداث القديمة أو الجديدة التي تحفل بها المنطقة.

كان منظر طاولتنا المفضلة جميلاً، وقد اخترناه بعناية ليناسب طبيعة عملنا، ففيه يمارس أصدقائي أنشطتهم المختلفة، ومنهم العاملون لحساب المركز السياحي، الذي يفرض عليهم مطاردة السياح الأجانب واقتناصهم وإغرائهم بجمال المنطقة وأشياء أخرى.

حييت أصدقائي واقتعدت كرسيا بجانبهم. كان الجمع حاضراً، اكتملت الجلسة بتواجد المهدي وعبد الله وعبدالعزيز،بالإضافة إلى صديقي المقرب سعيد وصديقه عزيز، وقد التحق بنا سي أحمد في آخر المطاف بعد ما ذهب بسيارته ليركنها في ظل شجرة تين ضخمة بجانب المقهى. كان سعيد يرحب بي ببشاشته المعهودة ويصب لي الشاي في حبور، وهو نوع من الترحيب والاحترام الذي يكنه لي ولصديقي سي أحمد، كان يراني ممثلاً للقانون في البلدة، فيبادلني الاحترام

الكامل الذي يليق بدركي مهيب، والأكيد أن هذا الاحترام نابع من الطبع الذي ترسخ لدى العديد من شباب المنطقة، وكان ينم عن احترام وتقدير لطبيعة عمل رجال الأمن، يظهر هذا التقدير في عيونهم السوداء المتعبة، مهما حاولت رفع الكلفة وتقريب المسافة بيني وبينهم.

تبادل الأصدقاء الكلام فيما بينهم، كانت المواضيع متنوعة ومتشعبة، وكان سعيد ورفاقه مستبدين بالكلام، تناولوا قضية الاختطافات التي عاشتها البلدة منذ أسابيع، وقد اختطفت الضحايا في ظروف غامضة وغريبة. طرح كل منا رأيه الذي يراه موضوعياً وصائباً كالعادة، بينما لزمت الصمت، وقد كنت أستغل الفرصة لأحظى باستراحة خفيفة على مقعد المقهى بعد يوم عمل شاق ومتعب.

انتفض سعيد من مكانه كأنه وجد خيطاً رفيعاً قد يؤدي إلى فك ملابسات القضية وقال بصوت مرتفع مشحون بلهجة تنضح حماسة ويقينية:

إن ما حدث أيها الأصدقاء غريب على قريتنا، فأنا لا أصدق خبر الاختطافات هذه، والقضية تبدو غير منطقية في كثير من جوانبها، كما أنه لا يمكن تصور حالة اختفاء واحدة دون أن تكون السلطات على علم بذلك، والسؤال الذي لم أجد له تفسيرا، هو كيف غفل "المقدم" عن الأمر؟ ولماذا لم يحرك ساكنا؟ وهل الباشا لديه علم بالخبر؟ إن ما حدث لأمر غريب بالفعل.

وصديقنا رجل الدرك "سي محمد" لن يكذب هذا الأمر، قال ذلك وهو يطلق ضحكته الساخرة.

كان كلامه مبهما، ويبدو أنه يريد أن يضعنا في صلب القضية، لكننا لم نكن مستعدين للإجابة عن هذا السؤال، الذي كان مباغتا، ويبدو في حقيقته أمرا عصيا.

تدخلت لأسرد لأصدقائي طبيعة ملف القضية، أوضحت لهم أن الملفات لا تعالج بهذا الشكل الذي يرونه، فكلام رجال الدرك في مركز "القيادة" لن يفيد شيئا، مادام أنه ليس هناك أدلة ملموسة، والتحقيقات تأخذ مجراها بشكل عادي جدا، وأحيانا يغلب عليها الروتين الممل والقاتل. تأخذ كل قضية أبعادا مناسبة لطبيعتها، فهناك قضايا بسيطة وأخرى معقدة ومتشابكة ولها أهمية كبرى لدى الجهاز الأمني برمته، فالبسيط من القضايا نضعه في ملفات صغيرة، ونتركه أو نحسم فيه بأنفسنا، ونتحين الفرصة لنتعلم منها المكر والدهاء، خصوصا النزاعات الصغيرة، أما القضايا المهمة فتأخذ منا قسطا كبيرا من مجهودنا، مما يعني أن اليوم سيكون متعبا، نقضي جله في التحقيقات وإعداد التقارير، لوصف ما حدث بتفصيل ممل، ثم نرسله بشكل خاص وسري، بعد حفظه في ظرف كبير، يتسلمه الرئيس شخصيا ويكون مشفوعا بالأدلة والبراهين. وعندما تفرض القضية حساسية كبيرة، تتقاطر علينا الاتصالات من كل جانب، فنتتبع التعليمات وننفذها بالحرف الواحد، وهو ما حدث

بخصوص قضية الاختطافات، حيث يتم مطالبتنا بنسخة من الملف على وجه السرعة، وإعداد تقارير عن كل شيء يخص القضية، ما يمكن استنتاجه من خلال التحقيقات الطويلة هو صعوبة الملف، لأن كل تحقيق يقودنا لآخر، ويعود بنا إلى نقطة الصفر، لأن الغموض يلف القضية ويجعلها تأخذ أبعادا أخرى.

تدخل أحمد بصوته الوقور كالعادة، وهو يوجه خطابه للجميع:

إن كل شيء في هذه الحياة بقدر الله ومشيئته، وفي الأيام المقبلة كل شيء سيتضح، وتظهر الحقيقة، وكل غائب لديه حجته، هو من يملك حقيقة اختفائه لا نحن، وما علينا سوى انتظار ما تسفر عنه الأيام المقبلة.

كان جوابه كاف لإنهاء الحديث، ويظهر أن السي أحمد كان يرغب في صرفنا عن الحديث في موضوع القضية.

أما سعيد فقد عاد يتأمل فنجان قهوته عله يعثر على خيط يقوده لفك رموز القضية، بينما تابع باقي الأصدقاء الحوار وهم ينظرون إلى سعيد، لعلهم يصلون إلى أجوبة مقنعة ومنطقية، وقد جعلهم سعيد يستيقظون من سباتهم، بينما كنت أراقب الجميع في صمت، وكان لابد لي من أكون لبقا، وأشارك بدوري في الحوار لكنني فضلت عدم التدخل، لكي لا أقطع استراحتي، فرحت أخمن في

سري، وقد استبد بي الموضوع، رجحت أن تكون فرضيات الاختفاء مرتبطة بأعمال الشعوذة التي يقوم بها بعض ضعيفي الإيمان في قرية سعيد، وسرعان ما تذكرت كلام سعيد، **"لا يمكن أن تكون هناك حالة اختفاء واحدة دون أن تكون السلطات على علم بذلك.."**، تأملت هذه العبارة وأنا أفكر مليا في انتفاضة سعيد، وشروده بعد ذلك فانتبهت إلى أن سعيد يخفي شيئا ما، فابتسامته الماكرة تلك تدل على امتلاكه تفاصيل كثيرة عن الموضوع، فأنا أعرف قدرته على معرفة أسرار وخبايا الناس، بسبب احتكاكه مع المرشدين السياحيين والأجانب، ومتابعته للأحداث عن قرب تجعله على اطلاع بالكثير من الحقائق، وهو قادر على التنبؤ بما سيقع، إنه ذكي جدا، وأنا أعرفه. أما عندما يتعلق الأمر بي فطبيعتي الكتومة تمنعني من الاسترسال في الحديث، لكنني شاركت سعيدا تلك الفرضيات، رغم أنني لم أرجحها، ولم يكن بوسعي قول شيء غير ما كنت أخبر به أصدقائي من مستجدات، وما أعرفه من التحقيقات غالبا ما يكون رسميا من التحقيق مع عائلات الضحايا المختطفين، لكن النكران والتعنت أحيانا يعيدنا إلى نقطة الصفر في الملف، فتحفظ المحاضر في مكانها، ويكون الصمت سيد الموقف، أما محضر ملف الاختطاف في البلدة، فهو مبهم وغامض، لا جديد فيه سوى بلاغات العائلة المكلومة بطول مدة الاختفاء.

2

اختفى شابان من البلدة فجأة، وفي نفس اليوم الذي كانا فيه يسلكان طريق الخلاء لرعي مواشيهم، رافق المختار صديقه منير كالعادة لرعي ماشية الشيخ اسعيد الذي كانا يعملان لحسابه. ولكن لا أحد يعلم ماذا حدث بعد ذلك، فقد تاه المختار في أرض المنحدر ثم عاد مجنونا يحمل منجله الحاد، يغرسه في الأرض، يجرح به أصابع يده، بينما اختفى منير فجأة كأن الأرض انشقت وبلعته، جن المختار في المكان المعلوم، ربما أصابته عين وأودت بعقله المتوقد، تحير أهل البلدة في جنونه، هل مسه جني أم إنسي؟ حكى البعض ممن رأوه أنه كان عائدا من الخلاء وراء الجبل، وجدوه مطروحا في الطريق، هل كان تائها في الخلاء، هل ضل طريقه نحو البلدة؟ وما علاقة المكان المعلوم باختفائه؟ وما سبب رفض الرعاة سلك ذلك الطريق الموحش؟

لا أحد استطاع فهم اللغز المحير في هذه القضية، ومنير الذي لم يظهر له أثر بعد ذلك ، كان يسوق قطيع الماشية بجانب الطريق المؤدي إلى ذلك المكان، جنبا إلى جنب مع المختار، لكنه لم يعد، كأن الأرض انطبقت عليه، منير ذلك الفتى الجميل، عريض المنكبين جميل المحيا والطلعة، يستيقظ كل صباح، ليقوم بعمله الذي انتدب من أجله، يعد أغنامه بعد أن يزيح مزلاج الباب، ليسهل على قطعانه الخروج، وترك الحظيرة، تسرع

القطعان نحو مرعاها في رشاقة وحيوية، تحاكي تنفس الصباح الجميل، تصدر أصوات البهجة والسرور، تتنزه في ظلال المراعي الطافحة بالكلأ، تستنشق هواء العشب الطري ومنير يرقبها في صمت، يهش بعض القطعان المتمردة، ويرمي الأخرى البعيدة بالطوب، يحاول أن يجعل من قطيع الماشية سربا واحدا يسير في الطريق، سلك منير كل الطرق المؤدية لربوع الوادي بجانب البلدة الصغيرة البارزة فوق الهضبة، استنفذها واستنفذته، أصبح مروره بعدة أمكنة مشابها لمروره السابق ، لكن عقله الصغير بدأ ينضج ويكبر، فضل أن يسلك طرقا أخرى ليفتح شهية قطعانه أكثر.. وكلما توغل في الخلاء يرى نفسه قد ابتعد عن قريته كيلومترات معدودة. يذوب في هذا الخلاء الشاسع الموحش، لكن حاسته وذكاءه المتوقد يقودانه للعودة إلى الطريق، يسمع الحكايات الكثيرة المنذرة بالشر عن المكان المعلوم في الخلاء، لكنه لا يأبه، ولا يهتم لذلك، لأنه لا يسهر كثيرا ويضيع وقته مع الشباب الذين لا شغل لهم غير الحديث عن أعراض الناس، ينام مبكرا ليستفيق باكرا ويسوق مواشيه نحو المرعى بحثا عن الكلأ لماشيته، حياته عادية، ومهمة وحيدة، لا يقوم بغيرها، هي حياة الرعي لا يعرف غيرها، وهي مهنة تتطلب الكثير من الصبر و الجلد، والقدرة على التحمل، تعلم تحمل مشاق العزلة، لكنه آمن في قرارة نفسه أن الخلاء الموحش هو الملاذ الأكثر تحصينا لنفسه التقية العفيفة، الملاذ الآمن من شر

الناس وكيدهم، الملاذ الآمن لروحه الطيبة، كما كانت توصيه أمه قبل وفاتها، ويبدو أنه حفظ وصية أمه عن ظهر قلب، كحفظه لمواشيه المؤنسة له في غربته..

لكنه لم يعد بعد ثلاثة أيام، لا أحد شاهده في الوادي وربوعه، اختفى اختفاء محيرا، عندما سألوا الرعاة الذين يتقاسمون معه أسرار الرعي، كانت الإجابة غامضة وأحيانا محيرة، منير كان يبتعد عن الربوع ويسير في الطريق المعلوم، كنا نشاهده في الخلاء، يغيب ويرجع فجأة في نفس الوقت الذي ابتعد فيه، يغيب عند الظهيرة ويرجع عند الظهيرة، وعندما نسأله عن غيبته، يقول أنه قام بجولة على جنبات الوادي، كان قليل الكلام، لا يثق بأحد، أما مواشيه فقد كانت تسمن وتتناقص بشكل عجيب. كانت الإجابات مختلفة ومحيرة.

اختفى الرجال فجأة، اختفى المختار فعاد مجنونا، واختفى منير الراعي الصغير بدون رجعة.

لا يعرف كيف وجدوه هناك مطروحا على قارعة الطريق بين المنحدر والبلدة، في هذه الشعاب التي تصب في الوادي الميت، والزواحف تنتشر هنا عند الظهيرة وتستظل بالشجيرات التي تنمو في هذه المساحات الكبيرة داخل الوادي الكبير، وهو متروك هناك للقدر يتربص به، حمله رجلان مع حماد إلى منزله الكائن بالدوار، كان الرجال وهم أصدقاؤه يعللون فرضية سقوطه هنا وحيدا في هذا الخلاء، فهم يعرفون أنه يذهب يوميا من هذا

الطريق مع رعاة الماشية، يساعدهم على الاعتناء بها ويقيم معهم أياما ولياليا، فيستنتجون أنه عندما كان عائدا من هناك، سقط بسبب الصرع الذي أصابه، وهي نوبات تأتيه أحيانا فتجعله طريحا، يخر فجأة، دون أن ينتبه إليه أحد، فهم يعرفونه عندما كان صغيرا، فقد كان يشاركهم اللعب في هذا الوادي، ويسقط أحيانا بسبب تلك النوبة التي تأتيه بغتة، فيحملونه إلى منزله، وقد انتهت رحلتهم، وبعدما استفاق من غيبوبته واطمأنوا على حاله، راودهم الشك عندما كان يقول لهم أنه تأتيه أحلام كأنها الحقيقة، وأنه يرى نفسه يذبح أحدهم بمساعدة من بعض الأشخاص الذين لهم معرفة به، راودتهم الشكوك، وخمن هو كيف يعرف ما يحدث له، ورأى سعيد أحد أصدقائه، وكان فطنا، بأن يقتفوا أثره علهم يعثرون على إجابات تشفي الغليل، وكان رجل الدرك يشجعهم على ذلك، لذلك اختاروا أن يقوموا بهذه الرحلة رغم صعوبتها إلى ما وراء الجبل لمعرفة ما حدث

3

أدعى المختار ابن محمد من قرية قرب وادي المالح الكبير، تأسرني قريتي الصغيرة، وتأخذني إلى حنين ذكريات طفولتي الجميلة، تطوح بي بعيدا، لسنين يانعة، تخضر الذكرى، أغمض عيني وأفتحهما على صفحة ماء رقراق يجري، والجدول الصغير يحتضنه في وداعة، ماؤه خليط من العشب والتراب، وطعمه حلو عذب المذاق، أقطعه برجلاي الصغيرتان، وأتحسس برودته، وهي تسري في أوصال جسمي وأطرافي الصغيرة، كنت طفلا صغيرا لم يبلغ بعد الخامسة عشر؛ طفل يحب الحياة، لكنني كنت في المقابل خاملا، ومهذبا، كان أبي يحبني كثيرا ويستبشر بي خيرا، لأنني كنت الابن الأثير للعائلة، أتذكر يوم فتحت عيني ورأيت رجلا ماثلا أمامي، كان يقتعد كرسيا صغيرا من الخشب وسعف النخيل، وصوت ينادي من الخلف:

_ إنه أبوك. نعم إنه أبوك.

_ رحب به.

ابتسامة خفيفة من محيا أبي تلوح في الأفق، فتح ذراعيه فجعلني أرتمي بين أحضانه، منذ ذلك الوقت شعرت بإحساس الأبوة، الذي لزمني طيلة حياتي، ها أنا ذا كبرت و ما أزال صغيرا، ما زلت أحبو على ركبتي... كبرت.. وكبرت، أخذتني الحياة في زحمتها، كنت صغيرا عندما كان أبي يأخذني معه إلى الحقل، كنت مغتبطا بهذه الحياة الجميلة والمراعي الطرية، أحببت كل

شيء تعلق بالأرض، كنت نحيلا، لكن ذاكرتي كانت قوية تحتفظ بكل شيء، تماما كاحتفاظها بطبيعة الحياة في البلدة، كبرت فيها واستنشقت الهواء، لأشعر أنني لا أرتاح إلا بالمقام فيها.

كان أبي يشجعني على الاهتمام بالمواشي، مع سقيها ورعيها، وكان البحث عن الكلأ شغلي الشاغل، كنت أحس بهذه البطون الجائعة دوما وأسعى سعيي لخدمتها في كل وقت وحين، وهل أترك والدي يعاني معها وأنا المعول عليه من بين إخوتي للقيام بتلك المهمة؟

أنا الوحيد المتمرس على هذا العمل، فقد كان إخوتي كبارا، وكانوا يقضون أوقاتهم الكثيرة في السفر والعمل والتسكع في المدينة، لذلك لم يكن مقامهم طويلا في البلدة، كانت الحافلة تأت بهم لأيام معدودة ثم تعيدهم بنفس الطريقة ونفس الكيفية.

كانوا يحاولون الاستمتاع بالأيام القليلة التي يقضونها في البلدة مع أصدقائهم، لذلك كنت وحيدا مع منجلي الأيسر الموصول بقبضة جذع رمان، أحضره لي أبي ذات يوم عندما لمس في القدرة على مساعدته في شؤون الحقل، ورعي البطون الجائعة التي تنظرنا كل مساء. كانت أمي المسكينة تذعن لأمر أبي في هذا الأمر، فلم يكن من الجيد الاعتراض على قراراته. أما بالنسبة للدراسة فقد كنت تائها؛ وخامل التفكير، ومع هذا كله كنت مهملا لها، وغالبا ما تجدني أهرب من المدرسة للارتماء في أحضان الطبيعة، حياتي كلها قضيتها في

الطريق أتجول بين الحقل والمنزل؛ لم يكن هناك بد من ترك المدرسة؛ خصوصا بعد تشنج العلاقة بين أبي والمعلمين في المدرسة، كانوا كلهم ضدي، يدافعون عن فكرة طردي من المدرسة، لم يكن ذلك سهلا على أبي لكنه كان قرارا لا رجعة فيه، ولن يجادله فيه أحد حتى ولو كان على خطأ، هكذا وجدت نفسي في مفترق الطرق وحيدا كغراب أجرب، عزائي الوحيد في مصابي الأليم منجلي الأيسر، هكذا أصبح وضعي الجديد، خدمة الحقل والاعتناء به، لأجل مواشي الوالد، الذي كان يشجعني على ذلك، وأنال منه الثناء الكبير.

مرت الأيام على هذا النحو، حيث لا جديد في هذه الحقول، ما عدا خرجاتي القصيرة مع أصدقائي من رعاة البلدة، فكنا نأخذ معنا المواشي ونسلك طريق الجبل؛ كان هذا المكان هو الوحيد الشاهد على اكتشافي لحياة جديدة، وبواسطته استطعت رؤية العالم، فاكتشفت أن العالم كان شاسعا أكثر مما تخيلت؛ وبصعوبة اندمجت مع الرعاة لنزعتي إلى الوحدة، كنت وحيدا أرضى بنفسي، قبل أن يفرض علي الواقع ملازمة أصدقائي من الرعاة، مرت الأيام على هذا النحو، ها أنا ذا أكبر وأكبر، ولكن الحياة تخبئ لي مفاجآت لم أكن لأتوقعها، في ذلك الجبل الكبير المطل على منحدر، كنت أتوغل أحيانا بمفردي، أعيش عزلتي ووحدتي القاسية، هكذا كنت وأنا ابن العشرين سنة، أصبحت راشدا، وقويا أهيء نفسي للصعاب، إنني المختار الشاب القوي؛ أو بومنجل كما يلقبونه.

بقيت على تلك الحال أعواما حتى جاء ذلك اليوم الذي توفي فيه والدي، فانقلبت حياتي رأسا على عقب، شعرت بحزن كبير يغمر قلبي المرهف، فأحسست بنهايتي، كنت تائها وحائرا فيما أنا فيه، لأنني فقدت أبي العطوف، استغل البعض هذا الوضع ليورطني في أعمال قذرة، كنت ككرة تتقاذفها الأيادي، يوظفونني لأعمالهم، وكان الشيخ اسعيد يعول علي لمراقبة طريق البلدة ومعرفة الوافدين الجدد الغرباء عليها، كان ذلك في أول الأمر قبل أن أكون خادم السلطة للتجار للسهر على مصالحهم، يؤدون لي ثمن السخرة دريهمات معدودة، كان عملي في أول الأمر بسيطا، لكنه أصبح مع الوقت معقدا، فبالإضافة إلى أعمال السخرة، كنت أقوم بأعمال أخرى للتجار، من قبيل مساعدة بعض الفقهاء لاستخراج الكنوز من الجبل الكبير، لمعرفتي ودرايتي الكبيرة بذلك الطريق.

عدت ذات يوم من المنحدر وقد ألمت بي حمى وأمراض شتى، وجدوني هناك في مفترق الطرق ملقى على الأرض، في حالة مزرية ينفطر لها القلب، تعرف علي أحد رعاة قريتنا، وهو شاب قوي اسمه حماد، حملني حماد واثنين من الرجال الأقوياء إلى أهلي، هناك حيث استقبلوني بحزن وصدمة شديدة، ووضعوني على الفراش الذي سأتحمل فيه عذابا مع مرض الوسواس والحمى والصرع، استفقت في اليوم الثاني ففرح أهلي كثيرا، واستبشروا بذلك خيرا، لكن الحمى ما لبثت أن

عاودتني من جديد وهي تمعن في تعذيبي، أغيب بين الفينة والأخرى، لتستبد بي الكوابيس والأحلام المزعجة.

عندما أستيقظ أسترجع شريط طفولتي البائس، أتذكر كل شيء في حينه، أجدني مشدودا لماضي المفقود، الماضي الذي لا أستطيع الفكاك منه، ها أنا ذا كبرت وما زلت صغيرا، ما زلت أجثو على ركبتي ..

كبرت.. وكبرت، أخذتني الحياة في زحمتها.

4

في كل ليلة من ليالي أيام السنة يتوافد أهل البلدة لأداء صلاة العشاء، كعادتهم، ثم يتفرقون عند خروجهم أشتاتا وفرادى في الشعاب والأزقة، أما الفقيه عبد الله فيدلف بعد خروج الجميع، يمشي مرتديا جلبابه المعهود، وقد خاطه بعناية ليناسب جسده النحيف، طويل القامة ، تبدو عليه علامات الرشاقة، يناديه أهل البلدة بالفقيه عبد الله غير أن الغموض كان يلف سيرته، فهو لم يتزوج بعد، وقد قارب الأربعين من عمره، يعيش وحيدا، منعزلا، ليله طويل داج، فقد كان يسهر في منزله الصغير، كان مولعا بكتب التنجيم، حتى أصبحت تلك عادته يسهر ليفك طلاسم الإنس والجن، ويستعين بسذاجة نساء البلدة ليمارس طقوسه المعهودة، في الرقية والتداوي بأساليب بدائية، عاوده حنين الماضي، وذكريات دراسته للقرآن في سوس، حيث كان يسمع حكايات الفقهاء الذين اغتنوا بالدجل والشعوذة، وتأثر بها، فأبى خياله أن ينسى هذه الحكايات التي ما فتئت تتردد في نفسه، حتى أصبحت حقيقة تلازمه في نومه ويقظته، هل هو الولع بشيء محرم؟ أم هو فراغ قاتل يمضي به وقته؟ ويصرفه ليتخلص من الضغط الممارس عليه من طرف أهل البلدة، استبد به هذا التفكير كثيرا حتى أصبح هدفا يأوي به إلى بيته الصغير المعزول في

طرف البلدة، لتكون الوحدة صديقته الأبدية، لا يظن أحد به السوء، فهم يعرفون المهام المنوطة به، حيث أوقاته معروفة، وهي أوقات الصلاة، لكن الفقيه عبد الله، لا ينام ليله، بل ينشغل بالقراءة والكتابة، قاده سهره في بادئ الأمر ليعجب بالشِّعر، فكان ينظم الأشعار الطويلة، مولعا بالقافية ونظمها، حتى أسر القريض لبه، فسكنت بين ثنايا قوافيه روحه، فكان الشعر ملجأه الوحيد، للتنفيس عن وحدته، وكان معه كتاب عجيب لاستخراج الكنوز وترويض شياطين الجن، كان يطالعه، لكنه لا يعلم كيفية تطبيقه، وكان يتمنى العمل به لتأديب البعض ممن يراهم الفقيه أعداءه، فقد كان بعض المتعلمين يعيبون طريقته في القراءة، فيتمنى أن يصيبهم بسحر يخسف بهم أو ينكل بهم ليجعلهم عبرة للآخرين، كان طموحه أكبر من طموحات أهل القبيلة، والمتمثلة في كسب ود الإمام وتزويجه، حتى يتفرغ لعمله، وهو في قمة نشاطه وإحساسه بانتمائه للقبيلة، لكن الإمام الفقيه يرفض ذلك، ويسعى لإقامة الحواجز وعرقلة أية محاوله لإقناعه بالزواج، كانت طموحاته أقوى وأكبر من ذلك بكثير، كان يريد لأتباعه من الجهلة والمغفلين التعساء، أن يقتفوا أثره ليتبركوا به ، وهو يضع لهم البخور و"الجاوي" ليأسر عقولهم، ويفعل فيهم ما يشاء، فكانت الرقية الشرعية وسيلته الوحيدة للإغراء، يمارس تلك العادة كل صباح أو مساء، عندما ينادى عليه، ويطلب منه ذلك، وكان يستهدف المجانين الذين أصيبوا بالوسواس،

فازدادت سلوكاتهم غرابة، جيء بالمجنون المختار بومنجل مرات ومرات ليداويه، لكنه يئس من حالته، وتركه بعد محاولات، كان يأمل في معرفة سر الوسواس الذي ينتابه كل يوم، لكنه لم يتوصل لأية نتيجة، يعرف من أهل القبيلة، سبب جنونه، فينتابه الفضول لمعرفة المزيد، لكن هذا الفضول سرعان ما يصبح يقينا، فقد راجت حكاية يدعي فيها من وجدوه مطروحا في الخلاء، أنه سافر أياما للمكان المعلوم، فاستقر به الحال هناك، وهو المكان الذي عرف اختفاء الكثيرين لأسباب غامضة، انتابه الشك، إنه الفضول الذي يجعله يفكر في زيارة المكان، لمعرفة حقيقة الاختفاء هذه، أخفى ذلك في سريرة نفسه، حتى لا يطلع عليه أحد، كانت نواياه تتحرك في اتجاه مكان واحد، هو الخلاء، الذي يحوي فرضية الاختفاء المزعومة، كان قويا رابط الجأش، يعلم أنه سيحصن نفسه بتعاويذ كتابه، ويرى أن شياطين الأرض لا تقدر على مواجهته، كان يعرف أنه بكتابه، يستطيع تطويع شياطين الجن، إن كانت له رغبة في ذلك، وهل يقدر على فعل ذلك؟ وهو شيطان الأرض وكبير شياطين الإنس، المهاب الجانب، كانت نوازع نفسه تهفو للمكان المعلوم، وتتلقف الحكايات عنه، فيما يشبه الاستغراب، من تضخيم الأمر، وكان أهل القبيلة المساكين، يستجيبون لرغبات خيالهم، فيطلقون له العنان، يؤلفون القصص المختلقة عن المكان؛ البعض يؤكد وجود غول يخطف الرجال ويأكلهم في مغارة

هناك، والبعض الآخر يرجح فرضية أن المكان مسكون بجني بارع في القتل، لكن لا أحد يعلم شيئا، كان الفضول يقتل الفقيه عبد الله، لكن يجب عليه أن يقطع الشك باليقين، ويعرف حقيقة الأمر، وهو ما وقرت به نفسه في نهاية المطاف، حيث ودع القبيلة، وفي نيته زيارة المكان، واختيار اليوم المناسب لذلك.

لم يقر في نفس الفقيه عبد الله أن ينبه مؤذنه إلى سفره، لكنه أخبره بكلمات مقتضبة أن يحل مكانه حتى يعود، كان المؤذن يعرف الفقيه عبد الله جيدا فعندما يرغب في الذهاب لزيارة أحد أقاربه يشير له بعبارات تعني أن المؤذن سيتحمل أمور المسجد في غيابه، وعند بزوغ الفجر بدأت النوايا تضح وتسفر عن بغيتها، فقد خرج الفقيه عبد الله باكرا من منزله دون أن يعرف أحد وجهته، انتظر المصلون برهة وبعد تأخر الإمام أقيمت الصلاة وشيئا فشيئا بدأت تظهر ملامح يوم جديد من أيام البلدة.

يجد نفسه في نهاية المنعرج وقد تجلى الجبل الشامخ أمامه، يلف لفة صغيرة قبل أن يعثر على ضالته بجانب الجبل تلال صغيرة وفوق إحداها يبصر المنحدر، مساحة كبيرة، شاسعة، خمن أنه الخلاء المقصود، غير أن شمس الظهيرة اشتدت على حين غرة، فأرغمته على أن يتجول في الجنبات محاولا إيجاد مكان يستظل فيه، لكنه قرر أن ينزل في المنحدر عله يجد مكانا آمنا، برز المكان خلاءً

موحشا لا حياة فيه و مساحة شاسعة لا حصر لها، تذكر وجه منير، ذي العينين العسليتين والمحيا الجميل، أبيض ناصع، والوشم الذي على يده اليسرى، التي كلما رآها سعد واغتبط في نفسه، كان يراه عندما يتم تكليفه بإحضار الطعام للمؤذن، فيخرج للقائه ببشاشة، يحب أن يتعرض له في الطريق ويقبله، ليتمكن من رؤية ذلك الوشم، ينطبق شكله مع ما يقرأه في الكتاب، ويتمنى أن يلتقيه هنا في الخلاء الموحش، ليستطيع تنفيذ ما خطط له، يحث الخطى وهو متيقن أن منيرا يوجد في مكان ما هنا، حيث اختفى، ولم يفلح الرجال وهم يبحثون، في العثور على أثر له، أعتقد أن الخوف تملكهم وهم ينظرون من أعلى الجبل، والخلاء الموحش يتحول إلى سراب قاتل، وطريق العودة مستحيلة، والاختفاء لا تفسير له، ولم يكن في وسعه تغيير طريقه، بعدما قرأ كتابه، كان عليه أن يقطع كل هذه المسافة منذ الصباح الباكر، ليحقق مبتغاه، ونواياه الخبيثة تحدثه بالنجاح والثروة التي سيحققها بعد ذلك، تاركا المسجد والإمامة لمن هو أدنى منه، سيكون هو الآخر رجل أعمال في البلدة ينافس تجارها، وسيتمكن من تحقيق أمنياته في القريب العاجل.

***

ابتعد الفقيه عبد الله عن البلدة، ببضع كيلومترات، وهو يحث الخطى، حتى لا يدركه الصبح، وليكون في مأمن من الفضولين الذين يخرجون باكرا إلى عملهم في

الحقول المجاورة، كان يعرف اتجاه الرعاة في هذا الوقت بالضبط، ينتشر الجميع، ليبدأوا رحلة جديدة في الرعي، يبدأون بجنبات الوادي، ثم ينتهي بهم المطاف في تلك التضاريس الجبلية الوعرة ، وهم يعقدون العزم على العودة قبيل الغروب، لكن العودة دائما ما تكون محسوبة وحذرة، فأن تكون هناك على أبعد نقطة من هذه التضاريس الجبلية، يعني أنك وضعت نفسك تحت رحمة الخلاء الموحش، في أبعد نقطة نائية، ومصيرك ينتظرك ليتربص بك، لكن الأمر يختلف عند الفقيه فقد درس طريقه جيدا، لتصويب اتجاه بوصلته صوب الجبل الكبير، حيث مشرق الشمس، في تلك النقطة بالذات، سيعثر على ضالته، وهدفه أو السر الخطير الذي كان يحمله معه في كتابه. بدأت تباشير الصباح تلوح في الأفق، رغم أن الشمس الذهبية لم تشرق بعد، تطيَّر الفقيه بهذا الجو الممطر، لكنه عزم على المسير، تجاوز أشجار الطلح الكثيفة الممتدة على جنبات الوادي، ليعتلي الربوة الكبيرة قبل أن يجد نفسه أمام المنعرج الطويل ، ينخفض بين حوافِّ الجبال الصغيرة المترامية الأطراف في فضاء شاسع على امتداد البصر، هذا المنعرج الذي يحده الجبل الشامخ المنتصب، وهو دليل عثوره على المكان، حتى إذا بلغه، يجد نفسه وهو يلف حول الجبل، أمام فضاء آخر لا يقل امتدادا عن غيره، هو الخلاء المقفر الذي يفضي به إلى ضالته، يشعر بالمكان القفر موحشا، غير أن بعض الرياح الخفيفة تبعث البهجة في المكان،

لكن نفس الفقيه لا تعبأ بذلك الجمال الحقيقي الذي تصدره الطبيعة، إذ سرعان ما تستيقظ نفسه على نواياه الخبيثة..

***

عاد الفقيه عبد الله من رحلته القصيرة، ليلازم منزله، لم يتغير شيء في البلدة، كل شيء ظل على حاله، الناس ينهضون باكرا للحصاد، بعد استواء الزرع، ونضجه، يجمعون حبات القمح ويذرون التبن بالمدراة، ينتهي كل شيء بانتهاء فترة الحصاد والدرس.

الحياة تدب في النفوس العطشى، والشمس الذهبية تلقي بأشعتها على الوجوه النحيلة، ينشغلون بشؤونهم الخاصة وأعمالهم اليومية، أما المتسكعون والليليون الذين ألفوا الخمول ولوك الأخبار والإشاعات وتناقلها في الليل، فقد دأبوا على السهر في المقاهي، يقضون جل النهار في النوم. توقف خيط حكاية اختفاء منير مع عودة المختار والفقيه، لا أحد ذكره بعد ذلك، الجميع نسي أو تناسى القضية، الزمن يقذف بأهل البلدة ليتناسوا كل شيء في زحمة الحياة، يتطلعون نحو المستقبل بعيون وآمال متوجسة، وينظرون إلى الماضي البعيد كفردوس مفقود، بعين الرضى والحسرة، على ما فات من عمرهم وشبابهم، يلتبس الحاضر بالمستقبل و يتجه الزمن في دورته نحو النهاية الأبدية، يترقبون في صمت، ويتأملون في صمت . تشرئب القلوب والأفئدة

نحو السماء، في لهفة، تتضرع في تذلل، وتخشع في كبرياء إلى الغيوم الملبدة في السماء الداكنة. تستجدي الغيث و قطرات لغيث العباد و البلاد.

5

كل ما يدور في خلدهم هو معرفة حقيقة الاختطافات المزعومة التي يروج لها أهل البلدة، ويختلقون أحداثها، بما استقوه من أخبار الرعاة الذين يتلاعبون بعقول هؤلاء المساكين، فمعرفتهم حقيقة هذه الأخبار ستمكنهم من الوقوف على حقيقة مجريات الأحداث مع صاحبهم المختار، كانوا يعرفون أن الخلاء عبارة عن ساحة شاسعة، يوجد فيه سراب مياه مخاتلة، والأشياء التي يتخيلها الإنسان ويتمناها كالأشجار والنخيل والمياه والمنازل والأراضي المنبسطة، والواحات الخضراء، سراب قاتل لا حياة فيه، لا يعد بشيء سوى السراب نفسه، والاختفاء في صمت مطبق.

فكيف سيكون إحساسهم عندما يبلعهم السراب المضلل؟ هل هو إحساس بالضياع والهوان؟ وهل سيشعر بهم أحد في ذلك الضياع وسط الخلاء الموحش؟ هل يعرفون كيفية العودة إن قدر الله ووقعوا في أسر السراب القاتل؟ هل سيكون مصيرهم الهلاك؟ وهل ستضيع أمنياتهم في هذه الأماكن المقفرة؟ فكر سعيد كثيرا فلم يجد أجوبة شافية، غير أنه قرر برجاحة عقله أن يصطحب معهم أحد الرعاة الذين لهم دراية كافية

بمجاهل هذا الطريق، ليكون دليلهم، وينقذهم من شعاب التيه وسط الخلاء وملاحقة السراب دون جدوى، كما سيحضر معه بعض الماعز يشرب من لبنها ليمنع أصدقاءه من التفكير في ما وراء السراب، من مياه وأشجار وثمار.

أعلنوا رحلتهم المصيرية، كانوا خمسة رجال، سيأويهم هذا الخلاء الموحش أيام قبل اجتيازهم الجبل الكبير، بعد ذلك لن تكون طريقهم سهلة، هم يعرفون أن ما سيقومون به مغامرة، وعليهم أن يكونوا متحدين، والراعي يعرف الأماكن التي سيمرون منها، وهو خبير هذه المناطق الوعرة، لكن يجب أن يكونوا حذرين، فالحقيقة ما لبثت ستظهر للعيان إن عاد منهم أحد، حقيقة الاختطافات التي تعرفها البلدة، والتكهنات التي صاحبت هذا الأمر مدة طويلة. ومع أن الشبان لا يؤمنون بالخرافات ولا يهتمون بها، فقد كان اهتمامهم الكبير بصديق جلستهم المختار. لمعرفة مصيره، وما يقوم به وراء ذلك الجبل ويتحققون من جميع الفرضيات، يبدو الجبل رغم كبره صغيرا في أعينهم لأن عزيمتهم أقوى من الجبل، وأقوى من هذا الخلاء الذي يبلعهم في صمت، وهي رحلة مليئة بالأمل، والتوجس والترقب.

في الصباح الباكر من اليوم الموالي بدأوا رحلتهم الطويلة، تجهز الجميع، وأحضروا معهم المؤونة التي تكفيهم بضعة أيام، حضر الراعي ومعه معزاة كما تم الاتفاق عليه مسبقا، كان رجلا طويلا يضع لحافا على رأسه، ويرتدي جلبابا قصيرا وسروالا ونعالا تظهر عليه علامات الفقر والفاقة، ويبدو أنه ابن الخلاء الذي سينتهي إليه مصيرهم، قسمات وجهه يابسة ولونه الأسمر يخفي تجاعيد الصبر والعزيمة، كان قليل الكلام، يكتفي فقط بالتحية والإشارة، كان عازما على المضي، يستعجل الشبان كأنه يحثهم على المضي قدما، عيناه الغائرتان ترى كل شيء بوضوح، ترى الخوف البادي على وجوه البعض منهم، والريبة وهم يحملون متاعهم، يرى ذلك كله ويخفي ابتسامته، عيناه الثاقبتان تتطلع لما وراء الجبل، يبدو ذلك عندما ينظر بهما إلى الأفق إنه العزم الذي يملكه هؤلاء الرعاة ويتميزون به عن غيرهم، تبدو المعزاة أليفة له، كأنها تعرف طريق الجبل، فتنط هنا وهناك برشاقتها، وتتجاوز بعض العقبات، تقف عند نبات الشوك وقفة المتأمل والباحث عن الكلأ في لهفة، أما صاحبها فقد كان واقفا بثبات كأنه جذع نخلة لا يثنيه أي شيء عن عزمه.

تجهزوا أخيرا وانطلقوا يسبقهم سعيد كعادته، والراعي بجانبه والمعزاة أمامهم تركض في رشاقة،

خرجوا من البلدة كأهل الكهف، وقد استسلموا لهواجسهم ، والصمت يخترق هواء أنفاس الفجر والناس نيام، كانوا يجهدون أنفسهم في السير ويحملون متاعهم على مضض، يتأملون الطريق حتى لا يراهم فضولي يقصد حقله، فيفسد عليهم هذا الصمت المهيب ووقار الصبيحة، والبرد المنعش الذي يلج أنوف الأنقياء الذين يخرجون ويصادفون غبش الفجر، ابتعدوا عن البلدة وتجاوزوا الطريق الرئيسي، ليجدوا أنفسهم في طريق آخر من الحجارة والتراب، أصبحوا رهبانا في مشيتهم وفتية الكهف الذين آمنوا بربهم، سيظهر الجبل شامخا وراء هذه الشجيرات المتلألئة وسيشيح بلونه الأزرق الذي تكسوه حمرة الشمس الدافئة وهي في طريقها نحو الشروق، يوم جديد سيشهد رحلتهم الطويلة، رحلة لتبديد الشك والهواجس، رحلة اليقين والإجابات المقنعة التي تحل محل التساؤلات والفرضيات في ضميرهم المعذب، الحقيقة المؤلمة التي يبحثون عنها، قد لا يصدقها أحد، وقد لا يستسيغها البعض، لكن سعيد عازم، وسيضيف هذا لأحلامهم المستقبلية، تمنى أن ينشئ إذاعة يخبر فيها العالم بأحوال البلدة وهمومها، لكن مقهى الأنس استأثر بتلك المهمة النبيلة، حيث يلتقى الأصدقاء والأحباب يتبادلون الأخبار فيما بينهم، ولولا صديقهم اسي محمد الذي يعمل في شرطة الدرك لما علموا بنتائج التحقيقات الغامضة مع عائلات الضحايا المختطفين، و مصير القضية التي يريد البعض التستر عليه، فاختفاء منير

والمختار ومحاولة اختطاف بنت صغيرة أمور لا يجب التستر عليها، حتى ولو كانت تخمينات وفرضيات ومحاولات من مخترعيها الهروب من واقعهم البئيس.

قذفت بهم أحلامهم وأمانيهم إلى ما وراء الجبل الكبير، رأوها تتفتت وتتبخر، ورأوا الخلاء الموحش يبتلع الجميع في صمت مطبق، رأوا أنفسهم عاجزين عن تصور نهاية لرحلتهم الشاقة، طرحوا تساؤلات مع ذواتهم المتعبة، كيف استطاع سعيد بذكائه أن يقنعهم بهذه المغامرة الخطيرة والموت البطيء؟ ويلقي بهم في دروب التيه وهم راضون بمصيرهم. رأوا وجهه المتعب يجهد في إخفاء معالم حيرته، هو كما يعرفونه سعيد الفطن، كأنهم يقرؤون علامات الاستهزاء بهم، كيف يتلاعب بهم بكلامه وهم يصدقونه دائما؟ حتى لو أمرهم بالنزول للبحر لنزلوا وهم يعلمون أن فيه هلاكهم، وليس لديه عصا موسى ليشق الطريق، رأوا علامات عدم اهتمام الراعي بعيائهم وخورهم كأنه شخص آخر، ترمقه العيون في صمت وتراه المخلص الوحيد من مخاتلة السراب و المياه الكاذبة التي تظهر في الأفق، ذلك الخط الحدودي الذي ينبئ بالفراغ. تلك الخطوط الزرقاء بنية اللون المتشابكة والمتموجة والمائلة نحو الأرض، تلك الأماني وقد تلاشت في الأفق، كذبت العيون السراب لكنها صدقت بصيرة الراعي وفطانة سعيد، تتبعهم العيون في صمت كئيب ورجاء انتهاء الرحلة الطويلة.

خيم الصمت على الأجساد والتعب وأشعة الشمس اللافحة، والخواء الذي لا نهاية له، كانوا يمنون النفس بظل شجرة أو تل أو جبل، لكن لا شيء من ذلك، سراب قاتل ومشهد مأساوي من العياء والتعب والنصب.

ماذا يفعلون في هذا الربع الخالي؟ هل هم حمقى يركضون وراء السراب؟ ومن الذي غرر بهم في هذا المكان الفسيح الذي لا ظل فيه ولا شجر ولا حيوان، ولا أنيس، يؤنس وحدتهم ولا شيء يشعرهم بالحياة؟

أوقفوا سيرهم لما تعبوا من ملاحقة السراب، وعندما أخبرهم الراعي بوجود مقبرة فيها حفر كبيرة عميقة تحت الأرض في هذا المكان، انتابتهم الشكوك، فقادهم الفضول للبحث عنها.

كان سعيد يعرف بفطانته وحدسه أن هذه الحفر غير عادية، وهي نفسها الموجودة في ضريح البلدة وأنها كانت بفعل فاعل، شخص ما سبقهم وهو يعرف إحداثيات المكان جيدا، ووجود فضلات الإنسان هنا دليل على ذلك، استخلص سعيد أن أحد المولعين باستخراج الكنوز زار هذا المكان، ولابد أنه فرد من عصابة، وستحضر معها إحدى الضحايا من المختطفين، لاستخراج الكنز المخبوء.

6

لم أنم الليلة ولم أشعر بالرغبة في ذلك. أحس بأنفاسي المتقطعة مضطربة في دواخلي المتعبة، كلما وضعت رأسي على الوسادة إلا واستبد الوساوس بخيالي. خيوط التفكير تنسج ألاعيبها. أحاول منع نفسي من التفكير. لكنني بالمقابل أفكر في العمل غدا صباحا. يوم آخر من أيام العمل المتعب والجلوس والاعتكاف على المحاضر، وساعات طويلة لا نهاية لها.

سؤال ظل لابدا في دواخلي المتعبة، كأنه صوت قادم من بعيد يقول:

هل يبلغ الشقاء بالمرء ليكون مسيرا لا مخيرا؟ وما قيمته إذا كانت الوظيفة تقتله كل يوم ليعيش للآخرين؟ هؤلاء الذين يتمنون غيابه.

أسئلة تأتيني كل يوم على شكل نوبات، أحاول من خلالها تجاهل كل شيء والخلود للنوم، لكنه يغالبني على عادته. فكرت في كلام سعيد، عن الاختفاء المتكرر في البلدة، فوجدت نفسي أقول؛ هل من المعقول أن نتغاضى عما يحدث؟ هل أكون جانبت الصواب إذا قلت أن الجميع مشترك في هذه الجريمة؟

كل فرد من أهل البلدة يشترك فيها دون أن يعلم، وكل من أعرض عن قول الحقيقة، وأنا واحد منهم، هل أكون شيطانا أخرسا؟ هل أكون أعمى عندما أقفل فمي؟ وهل استنتاجاتي صحيحة، تنطبق على ما يحدث هنا في هذه الرقعة من الأرض البعيدة عن كل ما يمكن أن يفتح على النفس منافذ فرح عابر؟

إن الأمر عصي على الفهم، فأي سخافة هذه التي اشترك الجميع في نسج خيوطها، سواء عن حسن نية، أو بتواطؤ مسبق؟ حتى سعيد نفسه اكتفى بالتلميح ولزم الصمت، رغم أن ابتسامته الماكرة تفضح ما يضمره في قرارة نفسه، وتكشف غير ما يصرح به، ثم كيف سولت له نفسه أن يلقي بهذه القنبلة الثقيلة على مسامعنا ويتركني وحيدا أعاني في صمت؟ وهل يشاركني أصدقائي في هذا كله؟ أم أن التجاهل سيكون سيد الموقف؟ أعرفهم واحداً واحداً، وأقرأ تفكير كل واحد منهم، فالسي أحمد رجل متزن وعاقل، يزن الأمور بميزان العقل، ويغرق في صمت عميق، حتى إذا استفاق كانت تدخلاته حكيمة. وكان يربط كل شيء بالقضاء والقدر والتسليم، حتى أخبار الاختطافات لم تزحزح صخرة صمته المعهود الذي يخفي حكمة بالغة وبروداً لا مثيل له، بينما اختار عبد الله والمهدي متابعة الحديث بنوع من الحياد، ورغم أنهما يرغبان في مناقشة الأمر، إلا أن ثقافتهما المحدودة تجعلهما يصمتان احتراماً لنا،

غير أن ثرثرتهما الزائدة تطغى على الموقف خصوصاً عندما يتعلق الأمر بأحوال العمل وأخبار الناس.

7

نزل باندفاع كبير في ذلك المنحدر الطويل الذي يجعل الأعين تزيغ، والرؤوس تدوخ، وتوغل في الخلاء الفسيح الذي يضم الحقول الخضراء وواحات النخيل الكثيفة. تريث قليلاً، ومسح المكان بنظراته الخائفة، ثم أضرم النار بسرعة جنونية ثم فر هارباً لا يلوي علي أي شيء.ربما كان ذلك انتقاماً من الصمت والغضب والشمس الحارقة.

تجمع الناس على التل الجبلي الواسع ليروا بأم أعينهم ألسنة النيران وهي تلتهم أشجار النخيل والحطب، ولما استفاقوا من هول الصدمة، وعزموا على إنقاذ ما لم تصله ألسنة اللهب وهم يصبون لعناتهم وحنقهم على الفاعل، وعلت الهمهمات الغامضة وآهات الألم والأسى بسبب الفاجعة التي دمرت ممتلكاتهم التي تغنيهم من الجوع والفاقة التي أناخت بكلكلها على كل قرى المنطقة.

طلبوا المياه فلم يجدوها، فالآبار القريبة جفت وهي معطلة منذ مدة طويلة، ولم يبق سوى طلب الماء من الدور القريبة و الاستعانة بالدلاء والسطول والأواني لنقل المياه وإطفاء الحريق، إطفاء الغضب والنار. جفت أشجار النخيل واحترق البعض منها، احترق القلب النابض لوادي البلدة.

ظل أكثر الناس حائرين، يضربون أخماساً بأسداس، حتى أصابهم الخرس وتفرقوا أيدي سبأ وهاموا على

وجوههم في الطرقات دون أن يقصدوا وجهات معينة. كان الجميع يتألم من وقع الفاجعة التي ولدت هذا الاحتضار المأساوي الذي أتى على الأخضر واليابس، وأنتج هذا السخام الأسود المتطاير في الهواء. من فعل فعلته وترك الناس يقومون بعملية الإطفاء؟ والجباه تتصبب عرقا والسواعد العاجزة تنقل الدلاء، وسطول الماء لا تترك للنفس فرصة الراحة، أما أصحاب النخيل الذين رزئوا في ممتلكاتهم فلم يملكوا إلا الدعاء والاستغاثة أن يعوضهم عما ضاع منهم. كان الكل يسأل عن مصير نخيله وحقوله التي اندلعت فيها النيران. وشباب البلدة المتطوعون يركضون بالمياه ليغمروا بها الجريد والحطب والنخلات الصغيرة التي أصبحت رماداً تذروه الرياح، وهذه النار الضاربة في الجذور. لقد طغى التفحم الذي لا يطاق في يوم شديد الحرارة والهواء القاتل ينفث سمومه، سموم الدخان والذبال.

من أوقد النيران أوقدها في القلوب المسكينة، الحانقة واليائسة، من أشعل النيران ليقطع الصلة بين الأجداد والغرس الذي غرسوه، قطع آخر ما يربط الإنسان بأرضه، أشعل النيران بدم بارد و فر تاركا وراءه الصمت والغضب والدخان المتطاير. داخلتهم الشكوك في المختار المجنون، لكن لا توجد أدلة لإدانته، كيف يكون المختار وهو يد "المقدم علال" والشيخ اسعيد في البلدة الذي ينفذ أعمالهم القذرة.

من رآه يشعل النار في كومة الأعشاب لم يكن متيقنا من أنه هو، ولم تكن له الجرأة لذكر هذا الاسم، من اتهمه كان يريد أن يلصق به كل تهمة، لأن من عادة أهل البلدة عندما لا يجدون تفسيرات مقنعة، ينسبون التهم للمجانين للتنصل من كثرة أسئلة رجال الدرك والشرطة، وتحقيقات "المقدم" التي لا تنتهي. هي خطة محكمة تواطأ عليها أهل البلدة، ويعيدون نسج وتأليف الحكايات فيها عند كل مخالفة للقانون لا يعرفون صاحبها، وأصبح التواطؤ سيد الموقف، لإخماد كل متحمس لمعرفة الفاعل الحقيقي و تجنب الوقوع في مغبة الإدانة أو تحمل المسؤولية.

8

لا تعرف متى قدمت أو كيف كانت رحلة قدومها، لكنها وجدت نفسها هنا في هذه البلدة الجبلية زوجة لهذا الرجل الخمسيني. عانت هناك في المدينة بعد وفاة زوجها المسكين، قاست كثيرا وتجرعت من الآلام ما لا يطاق. عملت في البيوت خادمة لتنقذ نفسها من الضياع والتشرد، انتقلت من بيت إلى بيت إلى أن أصبحت متعبة و مريضة، ولم تعد صالحة للعمل في المنازل، فقررت السفر إلى الجنوب عند خالتها وهي امرأة كبيرة، ولها أبناء كثر خبرت حياة الجنوب، كانت خالتها ودودة ولطيفة. أخبرتها أثناء اتصالها بها أن عليها المجيئ وأنها ستعتبرها مثل ابنتها، كانت آنذاك في الرابعة والثلاثين من عمرها، عندما قدمت وهي تحاول التأقلم مع حياة الجنوب وأناسها، هنا انتظرتها أشياء كثيرة حيث نزلت بدورها مع النساء إلى الحقول لجلب الحطب و القيام بأعمال كثيرة. رأت في بادئ الأمر أنها أعمال تخص الرجال، لكنها لم تنزعج من الأمر، فقد كان ذلك تسلية لها لنسيان ما مضى من أحزان من بينها وفاة زوجها الأول. سارت الأيام على هذا الشكل، وكانت مسرورة بهذه الحياة الجديدة رغم قساوة الجنوب. تعاقبت سنوات على البلدة الهادرة، انقلب وضعها مرة أخرى، مع قدوم رجل تبدو ملامحه قاسية في الخمسين من عمره، توفيت زوجته الأولى هو الآخر، يعاني الضياع والوحدة، و

يحلم بزواج ثان ليضمن استقراره بعد أن عصفت به الحياة، اختارها لتكون شريكته رغم أن لها طفل صغير لا يقو على تحمله أو التكفل بمصاريفه، لكنه قبله على مضض دون أن يسألها عن اسمه حتى، قبلها بعيوبها وتم الزواج وكان بسيطا جمع الأهل والأقارب، فالرجل لا يريد أن يحدث ضجة في البلدة، فالمراد من هذا الزواج هو الستر وقد تم له ذلك، تعرف على ابنها الصغير منير مكرها، فتحملته رغم ذلك، وكانت تبدو على الولد علامات الصفرة، كأنه مريض بالمرض الخبيث الذي يقتحم جسد الأطفال عنوة، وكانوا يسمونه مرض "بوصفير".

توفي زوجها الثاني في إهمال فبكته في صمت، أصبحت وحيدة مرة أخرى، خرجت للبحث عن لقمة عيش، تقلبت بين منازل تجار البلدة ورؤسائها، فانتهى بها المطاف خادمة في منزل الشيخ اسعيد الذي أحسن توظيفها هو الآخر واستغل سلطته ليستعبدها أيما استعباد. كانت المسكينة تدفع بابنها الفتي ليرع أغنام الشيخ، وترسله لسخرة القايد والعمل بين يديه.

تلقت المسكينة خبر اختفاء ابنها منير في صدمة كبيرة، أغمي عليها ولما أفاقت شمموها البصل ورشوها بالماء البارد، وأوصوها بالصبر على فجيعتها، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

اكتوت المسكينة بنار الفراق، تلك التي نذرت ابنها الوحيد للعمل راعيا لأهل الدوار وهم الأغنياء الذين يتاجرون بماشيتهم، فقدت ابنها وفلذة كبدها الوحيد، شيعته في حزن عميق.

عندما راج خبر اختفائه الغامض كانت الأم مذهولة بما تسمعه، لم تصدق الخبر، ذلك الفتى مشرق الوجه، قد غادرها بلا رجعة، دون كلمة وداع، أصابها الذهول الذي كان نوعا من الهزيمة والخذلان، فهي لا تشبه ذلك الذئب الذي ساوم ابنته وباعها للتجار المهووسين باستخراج الكنوز.

هذه الحياة التي نعيش تعطينا لكي تأخذ منا، تجعلنا نعيش الوهم،

اختطف القدر أحبة نعيمة واحدا تلو الآخر، توفي زوجها الأول فاضطرت إلى الرحيل عن المدينة مبكرا حاملة معها طفلها المسكين، ثم غادرها زوجها الثاني في صمت، ليتركها وحيدة بلا معيل، تواجه مصيرها بلا رحمة، والآن يغادرها ابنها ويختفي في صمت مطبق، فقدت معه طعم الحياة، وإشاعة وفاته في البلدة تذبحها مرات عديدة، غير أنها لم تصدق الروايات بخصوص موته، بل أبعدت ذلك محاولة تجاهل مصيره المحتوم، سألت عنه المختار مرارا وتكرارا، ضربته ليبوح لها بشيء، غير أنه التزم الصمت كالعادة كأنه لا يعرف

عنه شيئا، فأصبح صمته خنجرا انغرس في حلقها. وأدخلها في دوامة من التيه و الضياع.

9

وأنا أقتعد كرسي مكتبي في مركز "القيادة"، أمام مقر"الباشوية"، في يوم من أيام صيف البلدة اللافح، في ساعة الظهيرة، يوم ممل لا جديد فيه، صادف أواخر شهر يوليوز، اتصل بي سعيد، فقفزت من الفرح وأمسكت هاتفي النقال، كنت أنتظر هذه المكالمة منذ أيام، عندما علمت بخبر تنفيذ أصدقائي لمخططهم ونواياهم بعدما أسر لي بها سعيد يوما قبل رحلتهم المصيرية ، ورغبتهم في زيارة الجبل، والتعرف على حقيقة هذا الاختفاء المزعوم في المنحدر.

قمت بالضغط على زر قبول المكالمة بلهفة شديدة، وأنا مندهش من المتصل، الذي كان اسمه يعنى لي الكثير حتى وقت قريب. فقد ألفت صحبة سعيد لما وجدت من تقدير تجاهه، هو وأصدقائه المخلصين. وبمجرد ملامستي لهذه البساطة الظاهرة على وجوههم، المستوحاة من بساطة وسحر الجنوب، وطيبتهم الطافحة والعامرة بها قلوبهم البيضاء، فما إن لامست ذلك كله فيهم حتى ذابت تلك العلاقة الرسمية بيني وبينهم، ذوبان الجليد، ولم يعد بيننا تلك الحواجز التي وضعتها طبيعة مهنتي في الدرك، وتوطدت أواصر المحبة والتقدير بيننا، حتى عدت ما أطيق فراقهم. أما سعيد فقد تقربت منه بشكل كبير، وأصبح صديقي المفضل لفطنته وذكائه، ولأنني أثق في آراءه وقدرته الهائلة على بدء الحديث في موضوع وإنهائه، وسرده للتفاصيل الصغيرة والكبيرة،

هذه القدرة العقلية على عرض مختلف القضايا من وجهة نظر مختلفة تجعله من بين المفضلين لدي.

سمعت صديقي سعيد في الهاتف يقول بصوت متعب متشنج:

_ آلو... آلو

_ صديقي سي محمد مرحبا....

_كيف حالك؟

_هل أنت بخير؟....

أجبت على الفور:

_مرحبا صديقي العزيز سعيد

_كل شيء على ما يرام... وأنت كيف حالك؟.... وكيف حال الأصدقاء؟...

_هل عدتم جميعا من رحلتكم..؟ كيف حالكم ؟...

رد علي باقتضاب شديد، واختصار في الكلام، كأنه يرغب في إنهاء المكالمة:

_نعم صديقي، لقد عدنا جميعا... ونحن في أفضل حال.

_غدا إن شاء الله... نلتقي في مقهى الأنس.. ونتحدث في الموضوع..

_أتركك الآن لأرتاح.. مع السلامة.

فقلت: مع السلامة صديقي....

أقفل الخط... وضعت الهاتف على المكتب، ورحت أضع يداي خلف رأسي وأنا متكئ، لأخمن موضوع هذه الرحلة المدهشة التي قام بها الأصدقاء.

كانت شمس الظهيرة تقترب في صمت آفل، حوالي الثانية والنصف زوالا.. وهو موعد انتهاء العمل، أنتظر هنا حتى اقتراب موعد أذان العصر، خصوصا بعد اشتداد الحرارة. فالعودة إلى المنزل في هذا الوقت بالضبط، يعني أنني وضعت نفسي تحت رحمة الشمس، ولفحة الشمس هذه قد تقعدني الفراش لأيام أو أسبوعا كاملا، لهذا أفضل عدم المغامرة بالذهاب باكرا إلا إذا كان الأمر مستعجلا.

في هذا الوقت بالضبط، آخذ قيلولتي التي تساعدني على استجماع طاقتي وإنهاء تعب اليوم.

زميلي في العمل هو الآخر ينهي عمله على عجل، ويستلقي في فناء مركز القيادة، يستظل تحت شجيرات حديقتها الجميلة، يطيب له النوم تحت شجيرات التين والرمان وأغراس النخيل، ينعم ببرودة ندى وريقاتها الخضراء اليانعة.

كان بدويا في طبيعته، يستعذب الطبيعة الصحراوية ببساطتها وجمالها، وأحسده على ذلك، مثله مثل أبناء البلدة، تسحرك طيبتهم الظاهرة، وعفويتهم المطلقة وفكاهتهم النابعة من صدق تصورهم للحياة. صديقي الصبور، يلفت النظر بتقاسم وجهه وسحنته المائلة للسواد، وجبينه الدائري وأسنانه البيضاء، ورشاقة جسمه فارع الطول، وتواضعه ونبله كنخلة سامقة مالت برأسها نحو السماء لكنها تقذف بالثمار في جود قل نظيره.

لقبته برجل المهمات الصعبة، لأنه كان يعوضني أحيانا في ساعات عمل الليل المستمرة عن طيب خاطر، كان زميلا نموذجيا في العمل، وكنت أساعده في كتابة بعض التقارير والمحاضر التي تحتاج إلى ذكاء ودربة وعناية فائقة.

كان عبد الودود زميلا رائعا في العمل، نكمل بعضنا البعض، فنلنا بذلك تقدير رئيسنا المباشر.

10

وجدوه مقتولا في منزله الكبير، الذي كان قبلة لزيارة الكثير من الذين يتبركون به، لكن مقتله كان غريبا على أهل القبيلة، فرأوا أن يتحفظوا عن التعليق على وفاته لمكانته بينهم، ويحسنوا دفنه بما يليق به. أغلقت أبواب القبة التي كان يستقبل فيها المريدين الذين يأتون لسماع تعاويذه، ويؤمنون بما يقول بل ويعملون به ويبذلون الغالي والنفيس لأجله.

وفاة الفقيه عبد الله كانت محزنة لأهل الدوار الذين يرون فيه رمزا من رموز البلدة فهو جزء من ذاكرتها، يقصده الصغير والكبير، ويتوسمون فيه شفاءهم من مختلف الأمراض التي تلم بهم. يتزاحمون على خيمة قبته المقامة أمام المنزل الكبير الذي بناه بعد خروجه من دار المسجد.

هذا الرجل الطويل ذي اللحية التي نبتت في شواربه والذقن الأسود، خالطته شعيرات بيضاء تناثرت على السواد الذي يغطي وجهه وأسفل فمه، عريض المنكبين، صاحب النظرات الحادة والشخصية القوية، يرتدي جلبابا أبيض من الصوف، وفي يده اليمنى خاتم، يلمع بلونه الفضي كجوهرة أو ياقوتة صاغها صانع ماهر.

كان الفقيه عبد الله في آخر أيامه محتجبا عن الناس منذ سفره الأخير، وقد أثَّر فيه السفر وبلغ منه الجهد، كما أن تحقيقات رجال الدرك والشرطة في الأيام الأخيرة كانت متعبة وطويلة، جعلته يختفي عن الأنظار لفترة، ويتجنب لقاء الناس ومقابلتهم. لاحظ عليه الناس غرابة أطواره، وعدم ثقته حتى في أقرب المقربين له، توفي فدفنت معه أسراره.

تلك الأسرار الدفينة التي تحيط بها غرابة عجيبة وهالة كبيرة، لا يقدر أحد على اقتحامها. فالمعتقد السائد هو أن لعنة الفقيه تصيب كل من سولت له نفسه الاقتراب منها، أو محاولة النيل منه، أو هتك منزله وتعرية أسراره. ولعل ما وقع للمختار الذي كان معه في آخر أيام حياته عبرة للكثيرين، فقد أصابه مس ذهب بعقله، جعله يعيث فسادا في البلدة، يهلك الحرث والنسل. حتى زوجة الفقيه المسكينة لا تعرف عنه شيئا، ولا علم لها بأسراره، فقد تمكن بقوته وسطوته من أن يسيطر على تفكيرها، ويستغله لمصلحته في أعماله، كما فعل مع المختار المجنون، تمكن من مداراتها وحصرها في شؤون المطبخ، فظلت بعيدة كل البعد عن أعماله مع المختار و أتباعه والذين يشاركونه أعماله القذرة، كما كانت غائبة عندما قام برحلته الجبلية المشبوهة، وعزمه على استخراج الكنوز المدفونة، أو تنكيله بالأطفال والغلمان، وترصد حركاتهم و سكناتهم، و اقتفاء أثرهم كفعله مع منير.

لم تكن لها معرفة بذلك كله، بل كانت جاهلة عمياء، يقودها قدر زوجها الميت إلى مصير غامض لا تملك من التجربة والخبرة الشيء الكثير لمواجهته. كانت جاهلة لا تعرف القراءة أو الكتابة، لا تملك بعد النظر، ولا تستطيع ذلك في ظل سيطرة زوجها، وتوفيره لها الأمن والحماية والطعام.

لا تملك ذلك كله لفض أستار حقائق زوجها وتعريته وفضحه، كان الفقيه عبد الله يتميز بشخصيته القوية النافذة والوجيهة، بشكل يصعب على المقربين معرفة أي شيء عنها. شخصية غامضة ابتليت بها البلدة وأهلها المساكين، فكان قدرهم الذي لا مهرب منه. وكانت كل أسرارهم معه، فكانوا يهابونه أثناء حياته، ولأنهم يسِرُّونَ له علاقاتهم مع زوجاتهم وأبنائهم، فيخشونه لكي لا يفضحهم، فقد عرف عنه صرامته و شدته التي ترعبهم، وكان يختمها بقوله " لا حرج في الدين"، وكانوا يلتزمون الصمت والحسرة بادية على وجوههم الكالحة.

وها هم الآن يخشونه أثناء موته، ويلتزمون صمتهم المعهود، هذا الرجل الذي دوخهم بغرابته، فولج البلدة من بابها الواسع غريبا وغادرها غريبا، دخل في صمت وخرج في صمت، أرعب النفوس حيا وميتا، فكانت حكايته على كل لسان وكل رجل من أهل البلدة.

11

طلبت من رئيسي في العمل الذهاب مبكرا اليوم، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر زوالا، اليوم يوم سبت، مما يعني أن العمل سيخف قليلا، وغالبا ما يتكفل به زميلي عبد الودود مع أعوانه، في الحقيقة لم أكن أحب ما يقوم به، عندما يحضر قرويين بسطاء ويكلفهم بمهام القيادة، لكن نتائجه كانت مبهرة، فقد استجاب له هؤلاء، وكرسوا حياتهم لخدمته، مما أصابني بالذهول، اكتشفت أيضا أن ساعات العمل الإضافية ليلا، تكون من نصيبهم فاستعذبت الأمر.

خرجت مسرعا بهدف اللحاق بأصدقائي في المقهى، أنا متشوق لرؤية وجوههم الطيبة، ونظراتهم المتأملة العميقة، أحب سماع قصة رحلتهم نحو الخلاء، تلك الرحلة المصيرية التي كادت تذهب بعقولهم وأرواحهم. أرغب في سماع المزيد عن ذلك الفضاء الموحش خلف الجبل الكبير، ذلك المكان الذي كنت أسمع عنه حكايات و أساطير قد تكون من نسج الخيال، قصة الاختفاء المجهولة للفتى منير وقصة المختار الذي سلك ذلك الطريق فعاد مجنونا.

عندما وصلت المقهى، رأيتهم في المنصة، في مكانهم المعهود، يتطلعون إلي، ويشرئبون بأعناقهم علهم يحضون برؤية رجل الدرك المهيب، والحقيقة أنني كنت

كذلك، متثاقلا في خطواتي، للراحة النفسية التي حظيت بها هذه الأيام في مكتبي الجديد، فقد كان العمل مريحا للغاية.

قام الجميع لتحيتي والسلام علي، فضممت الجميع دون استثناء، أجلسني سعيد بالقرب منه وراح يفتتح الجلسة بطريقته الخاصة، سألني عن أحوالي باقتضاب شديد، وسألته عن أحوالهم وتعبهم، فأجاب بلباقة، قبل أن يرفع من صوته تدريجيا، سبقته ضحكته للأصدقاء الذين شاركوه في ذلك، وهم يحاولون مداراة النَّصَبَ الذي أصابهم جراء سفرهم المتعب.

تلعثم سعيد في الحديث، فاغتنمت الفرصة لأسأله، قائلا:

كيف كانت رحلتكم خلف الجبل؟ وهل عثرتم على شيء يدل على وجود اختطاف هناك؟

كان سؤالي متوقعا بالنسبة لسعيد ورفقائه، فكانت إجابته لي معدة مسبقا:

لا شيء جديد، وجدنا بعض الحفر العميقة، وكانت على قلتها، قد انطمست معالمها بفعل انجراف التربة والرمال.

لا أثر لبشر أو حيوان هناك حتى الأشجار غير موجودة، رجحت فرضية أن يمر بالمكان أصحاب الكنوز لكن لا أثر للأقدام هناك، الأرض بدت منبسطة تحت المنحدر بشكل يصعب على أي شخص تخمين موعد العودة.

آثرنا العودة لننجو بأنفسنا، فوجودنا في هذا المكان لا يبعث على الحياة، نبتعد من هناك، ننشد الخلاص الأبدي، نرغب في أن نحيا من جديد.

ما أصعب أن يقامر المرء بروحه المتعبة !

فهو لا يملك عصا موسى أو مصباح علي بابا، لينير للناس عتمة جهلهم، ويريهم الطريق، ويعرفهم بالحقيقة الغائبة.

أخذت زمام الحديث فقلت:

مسألة الحفر هذه التي ذكرت عزيزي سعيد، موجودة في تصريحات الفقيه عبد الله، فقد مر هو الآخر من هناك، وقد أكد لي أن هذه الحفر كانت موجودة منذ مدة، ولا علاقة لها بالتنقيب عن الكنوز.

إن ما يثير شكوكنا هو اختفاء الفتى منير الذي لم نعثر له بعد على أثر، أما اختفاء الطفلة فلابد أن يكون بفعل فاعل، قادر على التسلل نحو الجبل، وهو يملك مفتاح ذلك الطريق، بشكل لا يثير الانتباه.

لاحظت اختفاء المهدي بيننا، فمن عادته أن يقاسمنا جلستنا، التي كانت أثيرة إلى نفسه. وهو يحب رفاقه كثيرا ولا يقدر على مفارقتهم.

فسألت عنه.

رد علي عبد الله صديقه المقرب قائلا:

المهدي هذه الأيام مشغول بأخيه المختار فقد تناهت أخبار تقول أن هذا الأخير، تدهورت حالته المرضية بشكل كبير، بعد وفاة الفقيه عبد الله الذي كان ملازما له

في نشاطاته، وقد تسبب في حرق أشجار النخيل في البلدة، هذا ما ذكره الذين رأوه هذه الأيام، وقد ازدادت حالته سوءا، لهذا السبب تخلف المهدي عن الحضور بيننا، المسكين يعيش هذه الأيام في جحيم تسبب له فيه أخوه المختار.

طلبنا له الشفاء العاجل، وبعد حديث قصير، استأذن الجميع ثم توادعنا إلى لقاء آخر.

12

انغرس وجه البلدة في هذا الامتداد الجبلي الذي لا نهاية له، وتلك الدور المتناثرة هنا وهناك على السفوح والتلال بينهما شعاب تشق طريقها نحو الوادي الميت، وهذه الطرقات والمنعرجات الملتوية تدل على أن هناك من يكابد المرور منها يوميا، وذلك الغبار الذي يحجب حدود ذلك الامتداد الأفقي بين السماء والأرض، والسراب المائي الذي لا لون له ولا شكل، وهذه الأزقة الساكنة كأن الشمس بلهيبها قد أخمدت وأطفأت فيها الحياة، والغرس من النخيل ذات العروش المتدلية تقاوم العطش والجفاف بصبرها المعهود، والبلدة الصغيرة تقاوم الجفاف والشمس الحارقة، يحتضنها الجبل، ويحميها من السيول والوديان، والدواب في مراعيها، تبحث عن الكلأ في الوادي، متنفس البلدة الوحيد. والوادي جف ماؤه منذ فترة، فأصبح عبارة عن صخور رملية وأعشاب يابسة، تخلَّفَ الوادي عن فيضه وسخائه، وجَفَّت ينابيع المياه الجوفية، مع قِلَّةِ التساقطات المطرية.

الحياة شبه ميتة في هذه البلدة المسكينة، والنخل في البلدة يقاوم وجه الجفاف اليابس، في صمت ومكابرة وعناد، يتحدى قساوة الطبيعة المتجبرة. الدُّورُ الواطئة شاحبة كمعالم قلعة مهجورة، الحياة مملة لا جديد فيها، والشمس ترسل أشعتها الساطعة في تأنٍّ، لافحة تحرق

الوجوه كنيران غاضبة خرجت من أفواه بركة آسنة. السكون يدب في النفوس الظمئة العطشى، تكاد تشرف على الهلاك. الزواحف هاربة تختبئ في جحورها تحت الأرض مستكينة. السماء زرقاء تكتنفها سحابة بيضاء متناثرة في الفضاء، مثل طبق مغلف بالبياض. الناس يرقدون كأشباح في منازلهم الطينية، يلوذون بالسراديب والدهاليز المظلمة، يفترشون الحصير والزرابي البالية القديمة، يرشون المياه في التراب والأزقة والممرات الضيقة. يفرون من حر الشمس اللافح، بحثا عن الظل والتراب الندي، ويتسلل إليهم الهواء المنعش من تحت جذوع النخيل والحقول المجاورة. الحركة بطيئة في الخارج وهواء ساخن يلقي بحر أنفاسه على الجميع.

سمعت أصوات جلبة في منزل المهدي وزوجته، كان صوتا مرتفعا مجلجلا، ظهر الشبح مهددا ومتوعدا، فهب الناس إلى الخارج لتبين مصدر الصوت، ومعرفة ما حدث، تبين أنه صوت المختار الذي تدهورت حالته، فهدد زوجة أخيه المهدي ومنعها من الخروج، فأمسكت بابنيها ثم أقفلت عليهما بيتها، محاولة الفرار والإفلات بجلدها. انتابت المختار حالة هستيرية من الجنون، فأقدم على تحطيم كل شيء وُجِدَ أمامه، أواني الفَخَّار الطينية والكؤوس الزجاجية.

لاح شبح المهدي قادما من بعيد، كان عائدا من الحقل بعد قضاء حاجته، تناهى إلى سمعه صياح وهياج

المختار، فاندفع نحو المنزل محاولا منعه، حتى لا يرتكب الحماقة. لكن المختار تحدى الجميع في غضب وأمسك منجله الحاد، يهدد ويتوعد، والجيران يتلصصون من النوافذ والأبواب، بدافع من الفضول والشفقة على المختار وأخيه.

هوى المهدي بقبضته على أخيه، محاولا إبعاد المنجل، ووضع يده على فمه يمنعه من الصراخ، لكن المختار تنصل من بين يديه، وفر نحو الخارج، وعندما هم بالخروج صادف وجود عبد العزيز، الصديق المقرب لأخيه المهدي، كان عبد العزيز يقضي قيلولته في منزله، عندما سمع الصراخ، فخرج ليستطلع الأمر، ولأن المهدي صديقه، اقترب من المنزل للاطمئنان عليه، فاصطدم بالمختار وجها لوجه. صاح به المختار، وطلب منه الابتعاد، لكن عبد العزيز ظل واقفا في مكانه دون حراك. وفي لحظة غضب شيطانية من المختار الهائج، اشتبك الاثنان، ودارا معا دورة في الهواء، وبسرعة جنونية، وأمام محاولات عبد العزيز اليائسة الإمساك باليد اليسرى لغريمه، والذي كان أقوى منه، غرس المختار منجله الحاد في جسده، وتركه مضرجا في دمائه، ثم صاح في الجميع:

قتلته، قتلته!

قتلت عبد العزيز... قتلت عبد العزيز!

قبل أن يهيم هاربا على وجهه لا يلوي على شيء.

صرخ كل من رآه مرميا على الأرض، خرج المهدي يستطلع الأمر فوجد صديقه المسكين، يتوجع ويشهق شهقة الموت حاول إسعافه لكن دون جدوى، الدماء تدفقت من جسده النحيل بكثرة كشلال هائج، كنهر جار، فلفظ أنفاسه الأخيرة أمام ذهول الجميع.

بكاه المهدي في نحيب مروع، وسربله الجيران بثوب أبيض للتعجيل بدفنه، كان الجميع في صدمة مما حدث، في ذهول وصمت مريب... سمع صوت نساء البلدة وصراخُهُنَّ يملأ الأجواء، وفي منزل عبد العزيز ولولت أمه المسكينة، ومزقت ثيابها، صرخت وهي تهيل التراب على رأسها، كأنها لا تقو على الفراق. ورثت ولدها في حزن مفجع.

اختفى المختار منذ ذلك اليوم وتلك اللحظة المريبة، لم يظهر له أثر، لا أحد شاهده أو رآه كأنه لم يكن، يقول البعض أنه توغل في الحقول بعد هربه، وأغلب الظن أنه سيذهب إلى كوخه المعروف، الذي يأوي إليه كلما ضاقت به الأرض، أو شعر باقتراب الخطر منه. أما آخرون فيعتقدون أنه عاد إلى الخلاء الموحش في المنحدر أسفل الجبل، اختفى هناك في صمت دون أن يشعر به أحد.

أقيم العزاء في طقوس جنائزية، وشيع الحاضرون الجنازة في صمت وترقب كبير. عم الصمت والحزن العميق، أجواء الموكب الوقور، تطلع الناس إلى جنازة الشهيد، يغمرونه بقلوبهم وعطفهم، ويرفعون أكفهم إلى العلي القدير يطلبون له الرحمة وأن يشمله الله بواسع مغفرته، ويحشره مع الصديقين والشهداء الأبرار.

ظهر الوجوم على وجه المهدي، الذي استفاق من الصدمة على واقع فقدان صديقه العزيز، أحاط به أهل البلدة يواسونه ويربتون على جسده الواهن المتعب، بدا عاجزا لا يقو على المشي أو الكلام، ثقلت رجلاه بشكل فضيع، ولعله تساءل في نفسه كيف وقع كل هذا في غفلة منه؟ وقع ما لم يكن في الحسبان، قتل المختار المتهور صديقه وأرسله إلى حتفه.

في اليوم الثاني وزعت كؤوس الشاي في منزل عبد العزيز، كنت مع أصدقاء المهدي من الحاضرين، أنا وسعيد وعبد الله والسي أحمد، جئنا لتعزية أم عبد العزيز المسكينة وزوجته، ومواساة المهدي في مصابه الأليم، شعرنا بالحزن لما وقع، كان الذهول قد أصابنا جميعا، فقدنا واحدا من أصدقائنا الأوفياء الطيبين، قتله المختار في لحظة غضب، وشيعناه في حزن عميق، كنا نحبه هو وصديقه المهدي، ونغبطه على بساطته وطيبته، إنه صديقنا عبد العزيز ذلك الوجه النوراني المشرق ذي اللحية الجميلة السوداء، تكتسي محياه في تنسيق وانتظام،

تكشف عن صفاء نفسه، ونقاء سريرته، وحبه الخير للناس، والتزامه واستقامته في الدين.

غادر في صمت، كما التقينا به في صمت، رحمه الله.

13

اجتمع القايد بالشيخ اسعيد والمقدم علال وبعض مرؤوسيه في مركز القيادة، كان اجتماعا سريا ومغلقا، لمناقشة التطورات الأخيرة في البلدة. وقد وصلت تقارير أمنية تفيد أن الأمن الوطني، عثر على خروقات وثغرات في ملفات الاختطاف. ومعلومات أخرى تفيد تورط مسؤولين كبار في هذه القضية، من بينهم مستشارين جماعيين و تجار كبار وشخصيات نافذة لها وزنها في المجتمع.

التقرير كان يتناول سيرة الفقيه عبدالله المقتول حديثا، وقد تم استقاؤها من التحقيق معه.

عمل القايد على عرض ملخص للتقرير ثم بعد ذلك طلب من أحد رجاله كتابة تقرير آخر يفند فيه هذه الادعاءات ويطلب الدليل والحجج على صحتها. لم يكن القايد يهتم لتورط هذه الشخصيات بل كان يحاول الدفاع عن نفسه، بعدما استشعر قرب نهاية عمله في البلدة، حاول تبرير بعض ما قام به، لذلك أصيب الشيخ اسعيد بخيبة أمل فلم يكن يتوقع أن يكون القائد متصلبا في رأيه، ولم يكن يدري أنه سيتجاهله تماما، أثناء كتابته للتقرير.

كل ما حدث بعد ذلك أن الأمور ازدادت سوءا، فقد عثر راع على رفات الطفلة الصغيرة المختفية بالصدفة، مما أعاد القضية إلى نقطة الصفر. توجهنا إلى عين

المكان ونحن مذهولون، فقد كنا على وشك أخذ إجازة قصيرة للراحة، لكن ما حدث غير كل شيء، واستنفر رجال الدرك والسلطات المحلية والساكنة التي أفاقت من هول الصدمة على وقع جريمة شنعاء، عجزت عقولنا على تصديقها.

كل ما فعلته هو أنني اتصلت بسعيد هاتفيا، فقد كان هو الآخر مهتما بما يحدث، لذلك طلبت منه المجيء، فلم يتردد في ذلك. كان سعيد بالإضافة إلى عمله كمرشد سياحي منخرطا في الجمعيات المحلية للبلدة لذلك فسيكون من الجيد اصطحابه.

وصلنا إلى عين المكان بعد ساعة من الزمن، التقت فيها أسئلتنا وهواجسنا، كان سعيد ذكيا عندما التزم الصمت لأنه في هذه المواقف الحازمة، يجب أن نستعد لكل شيء. وجدنا الراعي وبعض الساكنة والشيوخ و المقدمين. ورفات الطفلة في الطريق الجبلي. قمنا بالإجراءات اللازمة من تجيير المكان، ووضع علامات عدم الاقتراب، كنا نحاول جمع بعض البصمات لكن دون فائدة، فالجثة ظلت لمدة طويلة تقدر بالشهور قبل تحللها، تم العثور على قطعة قماش من ملابس الطفلة وفردة من حذائها. تطابق ذلك مع معلومات مواصفات الطفلة المختطفة قبل خمسة أشهر من الآن. لهذا سهل علينا التعرف عليها.

تهافتت وسائل الإعلام بكثرة، لتغطية الحدث، فتطوع الشهود لتفسير ما شاهدوه، من بينهم الراعي الذي وجد الهالكة. قمنا بكتابة التقارير وملء المحاضر بما سمعناه وشاهدناه. ثم أقبلنا إلى طريق العودة، بعد حمل رفات الضحية من طرف متخصصين في الشرطة العلمية.

14

مشت بخطى ثابتة، وهي تحمل في قلبها المهزوز فجاعة الفقدان، فقدان ابنها الوحيد منير. غير أن تصميمها و عزمها على المضي قدما في سبيل البحث عنه، وايجاده كان سيد الموقف.

لم تنتظر بزوغ الفجر، بل واصلت سيرها في الظلام الدامس، وهي تدوس بقدميها الشوك، وتتعثر بالحجارة الصغيرة.

الجو معتدل في الخارج في فصل اقتربت نهايته، بدأت تنخفض الحرارة الجاثمة على النفوس، مع أواخر شهر غشت، ريح خفيفة تهب من بعيد تؤنس وحشة الصمت. الطريق الموحش لا نهاية له، والامتداد بين الوادي والجبل فسيح، تتخلله أشجار الطلح المتناثرة هناك، والجبل الكبير يظهر شامخا كعادته، والوحشة تفتت أمل كل حياة كوحشة اختفاء منير، فيتضاعف عذاب الانتظار والشوق.

بين الوادي والجبل أراض بور تسمى بالوادي الميت لم تترك لبعد الفراق تبديد عزائم البحث، بل واصلت المسير في تحد و كبرياء. وهي على يقين أنها ستجد ابنها المفقود، و نداء الأمومة يناديه من بعيد، ستحتضنه في

شوق لتدفئ وحشته، تلبي نداء العاطفة القابعة في ذاتها المكابرة، ولا أمل ولا رجاء ولا حياة، وهي وحيدة حزينة تنادي في صمت، ولا مجيب يبدد وحشة المكان، سوى الضياع يخترق عذاب الانتظار و التردد.

الحيرة تطلق ضحكة الشماتة، والحزن يخيم على النفس المتعبة الشريدة. آه لو نطق المختار و كفاها مغبة البحث بنفسها عنه، ليتها منعته في ذلك اليوم المشؤوم تاركة إياه يذهب معه. وهل يفيد اللوم والعتاب؟ فكرت في جنونه، لكنها ترفض فكرة أن يعود ابنها منير مجنونا غير قادر على تدبر أمره كما يفعل المختار.

ليتها كانت قادرة على إحضاره ليدلها على طريقه، ولكن الوقت قد فات، وعليها تدبر أمرها بمفردها والعودة قبل المغيب. علها تجده فينسيها ألم الفراق ومرارة الغياب.

الحزن يجثم على نفسها المتعبة، وعذاب الانتظار قد أخذ معه كل شيء، وجه أربعيني كسرت عزيمته السنون، وجسد ترهل مع مرور الزمن فأصبح لا شيء سوى ذكرى عابرة، تطفو على السطح، تبعث أحزان الماضي البعيد، وماض لا جديد فيه.

15

هل تقبل حياة الإنسان المساومة؟ من يبيع ضميره لقاء دريهمات معدودة، وهل يضمن عيشه بها ؟ بعد أن ألقى بفلذة كبده لحتفها، ومصيرها المحتوم، هل باع أبناءه وأخذ الثمن؟ هل ساوموه فرضخ لهم، وهل قبل العرض المغري الذي ساوموه به؟ اشتروه بالثمن الذي سيسدد أضعافه عن عندما يساوره الندم.

هل هو الشعور بالخزي والعار من وجود ابنته عرجاء، دفعه لارتكاب هذا الفعل الشنيع؟

كيف قسى قلبه بعد ذلك، فأصبح كالحجارة أو أشد قسوة، هل تاجر بأحلام وأماني ابنته؟ تلك الطفلة الصغيرة في عمر الزهور، غضة لم تخبر الحياة بعد، قضت في صمت، ورحلت دون أن تحقق أمنياتها الصغيرة، ولابد أنه كان من بين أمانيها البسيطة أن يسود الحب والسلام في هذا العالم، لكن المسكينة لا تعرف شيئا عن قسوة هذا العالم وجنونه. تحتله وحوش آدمية لا تعرف الرحمة قلوبهم السوداء.

أسوأ ما يحدث في هذا العالم هو أن يغلب الناس الطمع، أن يكشف حقارتهم وتعاستهم وخيبة أملهم في

الحياة، هؤلاء الذين يساومون ويبيعون ضمائرهم، ولا يخجلون من أنفسهم.

استسلم للعناد والصمت فترك الجميع في حيرة كبيرة، يشبه بقية الأهالي في جلدهم وصبرهم أيام الشدائد.

هل نكشف على قلبه لنعرف حقيقة ما تخبئه نفسه، وما ارتكبته نفسه الأمارة بالسوء؟

في لحظة غضب شيطاني، تحول إلى وحش كاسر لا يرحم الضعفاء من حوله.

أي حياة هذه يعيش بعد موت ابنته، وكلام الناس كالسياط يزيده عذابا، كالحجارة والطوب، تصيبه في مقتل كل يوم.

وهل يفيد الصمت و عذاب التجلد، بين مرارة الفقدان وخيبة المساومة؟ هل رق لحال زوجته المسكينة، وهي تبكي فراق ابنتها الوحيدة؟ هل تساءل ذات يوم عن عظم ما ارتكبه؟ هل ساوره الندم وهو يبيع أغلى ما عنده، فلذة كبده؟

16

انتابني مرض التفكير الذي أنساني كل شيء، شل جسدي المنهك، لكنني بدأت في تذكر بعض الأحداث العالقة بذهني الشارد، وأنا أستحضر علاقتي الجيدة بأصدقائي في البلدة، خصوصا سعيد والمهدي، فالألفة التي جمعت بيننا كفيلة بأن تمد رباط أواصر المودة والمحبة.

أما علاقتي بالمختار فقد كانت متوجسة، شابها ارتباك وتردد بين الألفة و النفور، بين الحب والكره، بين السخرية منه و الإشفاق عليه.

هي لحظات قليلة اختطفتها بجواره، أو بالأحرى اختطفها للتقرب إلي، لا أنكر أنني صادفته مرات عدة، أثناء تردده على الشيخ اسعيد ومساعدته للمقدم علال في مركز القيادة.

لمست فيه الطيبة المعهودة كغيره من شبان البلدة، ملامحه قوية، عريض المنكبين يميل إلى الطول، واسع العينين، يده اليسرى قوية، يرتدي قميصا أحمر وأحيانا أسود، متسخا وملطخا بالعرق، يحمل معه منجلا يعمل به في مركز القيادة، يقال أنه ذكرى أبيه.

تظهر عليه علامات النجابة منذ صغره، لكن ظروفه كانت ضده، جرفه تيار لا يقو على احتماله، تيار هائل من الأحداث والمواقف التي عصفت به، فأظهرته على غير العادة، شخصا آخر تكسرت مجاديفه، فاستسلم للأمر الواقع، وكان استغلال الشيخ اسعيد والفقيه له كفيلان بإيصاله إلى الحالة التي هو عليها، ذات عاجزة فاقدة لكل شيء ولكل معنى، تنفذ الأوامر دون تفكير، العجز وقلة الحيلة.

هو الآن في الثلاثين من عمره أمضى زهرة شبابه في خدمة الآخرين، والولاء لهم، ولأجل ذلك أتعب نفسه، وعرضها للهلاك، أمعن في إلحاق الأذى بالآخرين، حالته المريبة تلك أوصلته إلى الجنون.

تكاثرت الحوادث في البلدة بشكل مثير للانتباه، وأصبحت الأفواه والألسنة تلهج باسمه، هو المتهم الأول دائما في نظر أهل الدوار، الحوادث التي وقعت مؤخرا في البلدة نسبت له، وهي حقيقية لا غبار عليها، فقد أثبتت التحقيقات ذلك، هذا ما لمسناه أثناء استجوابنا للضحايا الذين تضرروا من أفعاله، ضحايا الحريق المهول الذي شب في أشجار النخيل، وضحيته الأخيرة، صديقنا عبد العزيز المسكين، الذي دفع ثمن جنونه، وقتل عن طريق الخطأ.

اتضح بعد التحقيق على أن المختار أصبح خطيرا مطلوبا للعدالة، لكي لا يرتكب حماقات أخرى، غير أن

اختفاءه الغامض أضحى لغزا كبيرا، عجز عن فك رموزه رجال الدرك والشرطة الذين ضيقوا عليه الممرات والطرق، مخافة الإفلات، حاصروه في الخلاء وحقول الواحة، لكن دون جدوى تذكر. بحثوا عنه في كل مكان، فتشوا الطرقات والمقابر والقصور المهجورة، فتشوا الآبار والأكواخ لكنهم لم يجدوا شيئا، أضناهم البحث.. كأن الخلاء ابتلعه، وجعله ركاما من الحجر، تشابه مصيره مع مصير منير، غير أن الأول اختفى في الخلاء فابتلعه السراب المخاتل، بينما كان اختفاء المختار غريبا، ففي الوقت الذي تم فيه اكتشاف رفات الطفلة المختطفة، وكان رجال الشرطة على وشك فك معالم الجريمة، وايجاد تفسير لقضية منير، اختفى هو الآخر في صمت مطبق، كأنه لغز من هذه القصة المأساوية، كأنه أكذوبة البلدة، عاش بيننا لحظات وذاب كما يذوب الملح. والمختار هو من يملك حقيقة اختفاء منير، بعد وفاة الفقيه عبدالله، الذي مات وذهبت أسراره معه، المختار هو من يملك حقيقة الاختطافات المزعومة.

17

مضت أيام وأسابيع، على اختفاء مي نعيمة ولم يظهر لها أثر، ابتلعها السراب الكاذب، وأهل البلدة الذين أضناهم البحث، والشيخ اسعيد يبحث عن خادمته، سخر رجاله لتقليب الوادي الميت والجبل، لكن لا جدوى من ذلك كالبحث عن إبرة في كومة قش. ومي نعيمة على كل لسان في البلدة المكلومة بفجاعة الفقدان والغياب، واختفاء أشخاص كانوا في وقت من الأوقات حاضرين. غياب المختار المجنون ومنير وأمه نعيمة، وعودة الفقيه عبد الله المفاجئة ووفاته حتى وقت قريب، والطفلة المختفية التي وجد رفاتها في الجبل، والأسرار الغامضة التي تحيط بالبلدة، والتي لا نملك تفسيرات لها. والبحث المضن لرجال الأمن لا جديد فيه يذكر، غير فتح محاضر وإغلاق أخرى، والدركي نفسه اكتفى فقط بنقل التقارير للجهات العليا، ويبدو أنه يئس من الأمر فترك بعض المحاضر على حالها، مفتوحة تنتظر مصيرها، أو أن يعبث بها أحدهم ويوجهها لجهة مجهولة، أو ينهي هذا البحث الذي لن تعرف نهايته.

اقترب الصيف من نهايته، وخفت حرارة الشمس الساطعة، وبدأت الأجواء لطيفة، لكن لا أخبار عن مي نعيمة، ولا عن ابنها منير، وحتى غياب المختار المجنون. وفي صمت المكابرة، ضاعت الأماني

والأحلام في إيجاد عزيز، أو نعي فقيد، والدموع من أين يملكها من نذر نفسه لهذا الشقاء الكبير؟ غير الصمت واللامبالاة، وكآبة الأجواء في الجبل والخلاء الواسع، وسيطرة السراب المخادع،

وحياة كلها ضنك و جوع وسغب وقلة حيلة.

وعذاب الانتظار والركون إلى التسليم بالقدر خيره وشره، وهل أخطأت نعيمة طريقها، فأصبحت فريسة للذئاب ووحوش الليل الهائمة في الخلاء؟ وهل هلكت من شدة العطش والجوع؟ هل فقدت صبرها وتجلدها أخيرا واستسلمت للموت؟

في هذه البلدة المسكينة، طال النسيان كل شيء، الوجوه الشاخصة المندورة لأقدارها العمياء، والأماكن الموحشة كوحشة الاختفاءات المجهولة، والحيطان والجدران الأشد قتامة، رغم انصرام أيام الصيف الشاحبة، وغياب شمس النهار، مع حلول بعض السحب المتراكمة في الأجواء، وذكرى غياب مي نعيمة، مازال يرن في الأجواء، وفي هذا اليوم المشؤوم وصلت أنباء تخبر بيقين ثابت من رعاة الجبل أنهم عثروا على بقايا جسد مي نعيمة ميتة، مع بعض ملابسها، التي كانت ترتديها، والتي عرفت بها، روى حماد الراعي الجسور، بشاعة ما رآى وشاهد بأم عينه، قضت مي نعيمة أياما وهي تهيم في الخلاء، وأثناء ضياعها وتيهها، ماتت من شدة العطش، لفظت أنفاسها في ذلك المكان المقفر، حيث

كانت تمضي أياما وهي تبحث في تلك الشعاب عن ابنها المفقود، أصبحت ذكرى أليمة كذكرى اختفاء منير، ذكرى يسترجعها أهل البلدة بألم وحسرة وأسف.

توفيت من كانت نبع الحنان لابنها الوحيد، الذي كانت تترجى عودته، لكن لا أثر له، كأن الأرض ابتلعته، اختفى اختفاء غامضا وترك وراءه علامات استفهام كبيرة، هل قضى هو الآخر من شدة العطش؟ أم لاحقته الأعين اللعينة للفقيه عبد الله وأصحابه، وتم استغلاله في استخراج الكنوز؟ ظلت الإجابات غامضة وغير معروفة.

أقيم العزاء في منزل الشيخ سعيد، في صمت واحترام لهذه اللحظة الأليمة، حيث دب السكون في البلدة. وفي الساعات القليلة من الصباح الموالي للعثور على جثة مي نعيمة، توافد الناس بكثرة إلى منزل الشيخ اسعيد لتأدية واجب العزاء، بنفوس مكلومة وحسرة كبيرة، وتأبين تلك المرأة التي نذرت نفسها لخدمة الآخرين، يكون هذا جزاءها الكبير، أن تفجع في ابنها الوحيد، ذلك الفتى الجميل التي تتندر به نساء البلدة وهن يتحدثن:

- لم تلد امرأة ولداً ذكراً أجمل من ابن نعيمة.

18

توقف التحقيق فجأة بأمر من رئيسنا في العمل، وصدرت أوامر بمنحي عطلة قصيرة لأسترجع أنفاسي. أخذت زوجتي وأولادي ثم سافرت نحو المدينة الكبيرة، لقضاء أوقات ممتعة معهم، قضيت أيامي الأولى في المنتجع المفضل لدي، تركت لنفسي فرصة الاسترخاء وعدم التفكير في أي شيء، كنت أرغب في نسيان تعب العمل ومشاكله.

وبينما أنا على ذلك، وصلتني رسالة قصيرة من صديقي في مركز القيادة، عبد الودود، يخبرني فيها بالعودة فورا، لأمر طارئ، قفزت من مكاني، وشعرت بغضب كبير، قال لي بأنه يتوجب علي الحضور غدًا للقاء القائد الجديد، الذي يريدني لأمر هام، بشكل مستعجل، فكرت في القائد القديم ذلك المعتوه الذي أفسد كل شيء في "القيادة"، وكان يفضل علي عبد الودود لغبائه الكبير، ويأخذه معه في جولاته، تميز عبد الودود بالصبر على حماقاته، جعلته يفضله هو بالضبط، كما أن بنية عبد الودود القوية قد تتدخل لحمايته من أي تصرف طائش من أحدهم.

والجميع يتذكر كيف تدخل عبد الودود لإنقاذ القائد الأحمق في ذلك الحادث المشؤوم الذي كاد يودي بحياته. عندما قام أحد سكان البلدة، بإحضار الآجر والاسمنت لبناء جدار يفصل بينه وبين الطريق، وأمام رفض القايد

ومنعه له، حمل هذا الأخير معوله وكاد يهوي به على رأس القايد، لولا لطف الله وتدخل عبد الودود وزملائه، الذين حالوا دون وقوع الكارثة.

كان القائد القديم سكيرا عربيدا، يقضي ليله في السكر، ولا يأتي للعمل إلا وقت الظهيرة، رغم صرامته المعهودة، وكنت أتحاشاه ليس بسبب خوفي منه، بل لأنني لا أرغب في كشف أخطائه الكثيرة والمتزايدة التي تنم عن سوء تصرفه وعبثه.

و عندما يرغب في مداراة الباشا الذي يقوم بزيارتنا شهريا أحيانا لتتبع آخر المعطيات بخصوص قضية الاختطافات، كان يكلفني باستقباله، فكنت أحسن التصرف معه ، وكان الباشا ذكيا فكان يتعامل معي باحترام وتقدير. ويناقش معي القضية وهو يحاول أخذ رأيي فيها.

تغير "القائد" القديم بآخر جديد، ونحن لا نعرف من هو أو ماذا نفعل معه؟ هل نداريه أم نقول له الحقيقة؛ حقيقة نتيجة التحقيق التي لم تظهر بعد.

رن الهاتف، فقطع علي شرودي، كانت المكالمة من مجهول، فكرت في عدم الرد، لكنني فضلت الرد أخيرا عندما وجدت إصراره في طلبي.

فتحت المكالمة وقلت:

_ آلو مرحبا من معي؟

قلت ذلك وأنا أحاول مداراة غضبي وحنقي من العالم.

_ مرحبا، سي محمد، معك القائد الجديد.

_ طلبت رقم هاتفك من صديقك عبد الودود، آمل أن تكون بخير.

_ اسمع يا سي محمد، تعالى غدا للقيادة، أريدك في أمر هام، ومستعجل.

ثم أقفل الخط.

انتابني إحساس بالقلق والفتور.

إنه القائد الجديد

لكن لماذا يريد حضوري؟ ولماذا أنا بالتحديد؟ فكرت أنه قد يكون عبد الودود أساء التصرف معه ولم يستطع كسب وده. فكرت في قول أن كل شيء بحوزة عبد الودود ، كل العمل الذي قمنا به حتى الآن في مكتبه، هل سنعيد التحقيق من جديد؟ أيعقل هذا بعد عناء كبير وتبديد الوقت والطاقة في كتابة المحاضر وإعداد التقارير. هل سيضيع كل شيء في لحظة غضب القائد و سخطه على الجميع؟

أخبرت زوجتي برغبتي في الذهاب، فحزنت كثيرا، بل رفضت الكلام معي، قبلت الأولاد وأخبرتهم ألا يقلقوا في غيابي، فسيكونون في أمان مع أمهم،

أوصيت العامل، بأن يعتني بهم ويساعدهم في كل ما يطلبونه.

جمعت أغراضي ثم ذهبت مستعجلا .

وصلت البلدة في الصباح الباكر، انتظرت ساعات قبل الذهاب للعمل.

وصلت إلى مركز القيادة في الساعة الحادية عشر صباحا، فوجدت الجميع ينتظر في الخارج، ومن بينهم عبد الودود وأصدقاؤه.

كان السكرتير يقف أمام باب مكتب القائد، وعندما رآني أمرني بالدخول.

وأشار إلي عبد الودود قائلا:

إنه هناك في المكتب ينتظرك.

فتح السكرتير الباب، فدلفت، وأديت التحية في أدب واحترام.

وقف القائد، ثم أشار إلي بالجلوس، كأنه ينتظر قدومي.

أظهر لي احتراما كبيرا بقوله:

تفضل اسي محمد اجلس.

تأملت قسمات وجهه، تبدو عليه علامات النجابة والذكاء، بالإضافة إلى صرامته، بدا ذلك واضحا من ذقنه الحليق وقميصه الأبيض الناصع. رددت في سري، سأتفاهم مع هذا الرجل.

لمحت جميع ملفات القضايا قديمها وجديدها مطروحة على المكتب، وأبهرني التنظيم والتنسيق الذي حظيت به، ولابد أن عبد الودود عمل على هذا تحت إمرة وسلطة هذا القائد الصارم، الذي لم يترك شيئا للصدفة.

أعطى القائد أوامره للسكرتير بأن يمدنا بالقهوة، ويقفل الباب من ورائه ليتركنا وحدنا.

19

مرت الأسابيع في البلدة كالبرق، طفت أحداث ووقائع أخرى جعلتنا ننسى موضوع الاختفاء وقضية المختار وغياب مي نعيمة، حدث شيء طارئ في البلدة صرف أذهان الناس ووجه مسار الأحداث بشكل غير متوقع، أصيب أستاذ الابتدائي عبد السميع بالجنون، فأفزع سكان البلدة، حكى لنا المهدي بألم وحسرة ما وقع، وما شاهده بأم عينه، فهو بنفسه لم يستطع تصديق ما حدث. كان عائدا من محل البقالة، عندما تناهى إليه صراخ الأطفال، وهم يلهجون باسم الأستاذ عبد السميع، فهرولت لرؤية ما حدث، وكم كانت المفاجأة كبيرة عندما وجدت الأستاذ عبد السميع جالسا وهو يمسك أوراقه ويبعثرها في الطريق، وعندما انتهى من ذلك، طاف في القمامة يبحث عن لقمة أو قطعة خبز يسد بها جوعه.

جمدت في مكاني يقول المهدي، وتحير الذين شاهدوه في هذا الموقف المحرج.

أخبرنا السلطات بأمره، وقدمت سيارة الإسعاف، كان اسي أحمد صديقنا قد أرسل في طلبها، بعدما أحس بالخطر يحدق بعبد السميع، فقد كان من بين أصدقائه المقربين.

أمسك به رجلان ثم حقنه ممرض، قبل أن يأخذوه معهم في سيارة الإسعاف، تمهيدا لنقله إلى مستشفى المجانين.

حكى المهدي ذلك بأسف ونحن جالسون في المقهى، شعرت بالحزن لما وقع للأستاذ عبد السميع، فقد كان يشاركنا جلستنا في المقهى أحيانا، رجل فارع الطول، تقرأ في عيونه الطيبة والحزن العميق، مثقف جميل يهوى الشعر والأدب، مولع بقراءة الروايات، وكان يعيرني بعضا منها كنت أحب هذا الميول فيه، وكان يذكرني بسنواتي في الجامعة عندما كنت أكتب بعض النصوص الأدبية.

أخرج المهدي من تحت جلابيته، بعض الكتب والأوراق، وأمر سعيدا أن يحتفظ بها قائلا:

ـ هذا ما حصلت عليه من أطفال البلدة المشاغبين، فقد استباحوا كتبه دون شفقة عليه.

لكن سعيدا أمر المهدي بأن يهبها لي، وهو يقول:

ـ خذ هذه الكتب يا أخي محمد، فأنا أعرف حبك وميلك لقراءة الروايات والكتب، وهو على كل حال صديقك، وأنت أجدر بها مني لأن عملي وتنقلي الكثير لا يترك لي الفراغ لقراءة الكتب.

ـ خذها وأعلم أنك ستعيدها له عندما يشفى من مرضه.

أمسكت الأوراق والكتب ووضعتها في محفظتي الجلدية الكبيرة، تذكرت عبد السميع المسكين وما بيننا

من مودة، كان المسكين يعرض علي أشعاره، فتنال إعجابي واستحساني، فأكيل له المدح والثناء، وأشجعه على كتابة المزيد.

20

يظهر هناك على مقربة من الساقية، يغرس أضافره في جدرانها، يكتب بالدم. أحاديث، وقرآنا.. ك. ه. ي . ع. ص. ذكر رحمة ربك، وهو متواجد هناك على مقربة منا.

أأنت كتبت أأنت محوت، والدم .. الدم االاه

ها .. ههها بو . بو منجل بو منجل

ابن البلدة المسكينة، قرية المجانين المغضوب عليها، يصاحبها جفاف كبير طيلة السنة، يحمل معه ذكراه الخضراء اليانعة، طفولة الأحلام الوردية تخضر كاخضرار الساقية وهي تحمل بقايا الطين والتراب الندي الذي لطالما تمرغ فيه، والأوحال جزء من كيانه ورأسماله، وهو الآن في نفس الأمكنة والروائح تملأ أنفه، رائحة الطين والقصب، وعبق حياة البادية وروح إيقاعها يدب في عروقه، بينما نسيمها الفياح يعطر سماء وجوده، فإذا أحس بالتعب افترش التراب وعندما يشعر بالبرد يلتحف وريقات القصب، وهو يحمل معه منجله دائما. حتى لقب بـ بومنحل.

يظل طول النهار في الساقية، يتمرغ في الوحل، يستنشق العبير، ينام تحت القنطرة، يغرس بمنجله أطرافها، يحمل معه كيسا، يملأه بالعشب والربيع المقطوف من جنبات الساقية، ها هو عائد إلى منزله الصغير عند العصر، يفرح بنفسه، ينتظر الطعام من

ذويه، يلتهم كل شيء، يجده أمامه، يأخذ علبة السيجارة "كازا" الموضوعة على صينية الشاي، يبحث عن الولاعة، اه.

ها هي .. يدخن بشراهة، ينفث الدخان، يملأ المكان.. والمنزل الصغير. فوضى كبيرة، وكومة من الملابس القديمة، وجلابيته ملقاة هناك بلا انتظام، في الجدران خطوط ووشوم. آيات قرآنية، تطرد الشياطين، ووتد مغروس في أعلى الجدار الأمامي، يحمل الخبز اليابس، وكوة ينبعث منها الضوء، كل صباح. ضوء الشمس الذهبية، وبومنجل ما زال في فراشه، توقظه أشعتها الذهبية الحارقة، تتسلل إليه، لكن القط الأسود وفي لصاحبه، يغرس فيه مخالبه، يغط بومنجل في نوم عميق ويستسلم لهدوء الصباح.

وتستمر حياته على تلك الحال.

هكذا دوما حياة أحد أبناء قريتنا المنسيين.

ثم يظهر هناك على مقربة من الساقية، يغرس أضافره في جدرانه، يكتب بالدم، آيات قرآنية وتعاويذ، طاء. سين. ميم.تلك آيات الكتاب المبين.

يسيل الدم .. يتدفق ينساب أحمرا قاتما.

بومنجل:

هاا هاا بومنجل

بو.. بو.. بو..

بومنجل.

21

دام اجتماعنا المغلق أنا والقائد الجديد ساعة، وهو يعرفني بنفسه ويعرض علي طريقة عمله الجديدة، بدأت نظراته الجافية تتلاشى رويدا رويدا، ملامح وجهه القاسية تختفي في برود، الصوت يخفت لتحل محله النظرة الحادة الحكيمة، الإبتسامة الخفيفة تملأ هذا الوجه الذي كان متجهما منذ صبيحة هذا اليوم.

كان الرجل يقف أمامي وهو في كامل قواه العقلية، ولم يكن مخمورا يترنح وتفوح الرائحة الكريهة من فمه كما هي عادة القائد القديم، بل كان متزنا يعرف ما يقول.

استمعت إليه، محاولا إظهار اهتمامي الشديد بما يقوله، رغم أنه استطرد كثيرا وأطال الحديث في ملفات تافهة، كنا نحسم فيها أنا وعبد الودود.

بدا الرجل عاديا، فحديثه أعاده لحجمه الطبيعي، تساءلت في سري، ما سبب هذه الضجة في الخارج، وهل هي مسرحية فقط لإحكام السيطرة على الموظفين، وفرض احترامهم له.

تطرق القائد إلى ملف قضية الاختطافات، ويبدو أنه درس الملف جيدا، فقد كانت معلوماته دقيقة، يذكر كل شيء مرتبط بها بالتفصيل الممل، حتى الأحداث بتواريخها وتفاصيلها. بدا الرجل كأنه عميل مخابرات وليس قائدا، خمنت أن القيادة العليا أرسلته هو بالتحديد

واختارته بعناية من بين القادة، حتى تتابع الملف من خلاله، فالقائد القديم لم يحسن التعامل مع الأحداث، التي توالت عليه، فناله غضب وسخط القيادة العليا التي باشرت ملف نقله فورا تأديبا له.

من يفلت من سيطرة هذا القائد المحنك وشباكه؟ هل هم موظفوه الذين لا حول لهم ولا قوة يشهرون بضعفهم أمامه؟ هل هو الشيخ اسعيد الذي تورط هو الآخر في قضية منير؟ وتعرض للخداع من طرف القائد القديم، دفعه إلى الانزواء في منزله، ويختار أوقات زيارته لمركز القيادة بعناية فائقة. يرسل أعوانه لترصد أخبار القائد الجديد وقراءة شخصيته من بعيد، حتى يحسن التصرف معه، هل هم عائلات الضحايا المصدومين بما حدث لأبنائهم؟ هل هو المختار المسكين الذي راح ضحية أوامر أسياده المقدم والشيخ اللذين تعاملا بغباء مع قضية منير؟

من يحاكم من؟ ومن يتهم من؟ ومن يتقمص دور الضحية؟ ومن يتقمص دور الجلاد؟

ختم القائد اجتماعه معي، مبديا رغبته في أن نتعاون معا، ونعيد فتح التحقيق من جديد، هذه المرة في اتجاه آخر، يقصد ملاحقة المتورطين في قضايا الفساد والاختطاف، واستنطاقهم للإيقاع بهم، والبحث عن المختار الغائب.

انتهى الاجتماع فأمرني القائد بالانصراف إلى مكتبي، وأمر السكرتير بأن يسرح الموظفين إلى أماكن عملهم، ويرسل له عبد الودود للاجتماع به.

وقبل أن أستدير للخروج من المكتب، سمعته يقول بلهجة صارمة:

صديقك عبد الودود سيعمل من الآن فصاعدا في دورية العسكر الجديدة، ريثما يرسلون موظفين عسكريين جدد. كما أنني سأقوم بتوسيع القيادة لنفسح المجال للجميع للاشتغال.

رفعت يدي إشارة للترحيب بما يقول، ثم انصرفت.

فكرت في سري:

هل يحتقر القائد الجديد عبد الودود لهذه الدرجة؟

فكلماته الأخيرة أظهرت ذلك، ويبدو أنه لا يثق في مؤهلاته المعرفية كرجل درك، ولكن من أين للقائد بهذه السلطة حتى يتحكم في رجال الدرك؟ يبدو أن القيادة العليا هي من أعطته حق التصرف في القيادة ووضعت رجال الدرك تحت إمرته أيضا، إذن فالأوامر مصدرها القيادة العليا، وما القائد الجديد سوى عينهم التي لا تنام، ويجب على عبد الودود أن يحتاط ويكف عن ألاعيبه، عليه أن يصرف هؤلاء القرويين الذين يعملون لصالحه، قبل أن يكتشف القائد الجديد الأمر ، إنني أراه ممثل القيادة العليا بجميع أجهزتها، حتى الباشا نفسه لا يساوي شيئا أمام هذا الرجل، ورئيسي المباشر هو الآخر، لزم الصمت لأنه يعرف طبيعة هذا القائد، وهو لن يتدخل في

سلطاته، فهو يعلم أنني سأكون مفضلا لديه من بين الموظفين، لذلك لم يفعل شيئا، كما أن تواصله اليومي معي، وليس مع عبد الودود، وعدم تدخل رئيسي المباشر له معنى واحد، أنه لا يعترض على إبعاد زميلي عبد الودود من مركز القيادة للعمل في دورية العسكر. لذلك فموقف عبد الودود في كل ما يحدث ضعيف، ولا يحق له الاعتراض عليه.

لمحت عبدالودود يستعد للدخول للقاء القائد، حينما ذهبت إلى مكتبي كغيري من موظفي القيادة، لبدء العمل من جديد.

22

آه يا المختار، ماذا فعلت؟ غادرت البلدة دون رجعة، وتركت أخاك المهدي يتحسر على فقدك، و يدعو الناس الله كل يوم ويمنون النفس بعودتك، آه يا المختار، ومنجلك انغرس في جسد عبد العزيز فأحاله جثة هامدة. ونخل البلدة أحرقه جنونك، وعبد السميع يا المختار، جن لأنه لم يستطع فهم هذا العالم الأحمق الذي أصبح حقيراً.

أين أنت يا المختار، لتشهد نزوح الناس من البلدة، وذهابهم دون عودة، حتى النخل مات، والمياه الجوفية انعدمت وأصبحت كالسراب، جفت الآبار واحترق النخل، وبكت أشجار الطلح المترعة غيابك، بكتك في صمت ونحيب.

لبثت في خلائك الموحش وسكونك، وتركتنا للفراغ وراءك، وعتمة الصمت، والألسنة تلهج بذكرك، وتلوك أخبارك كأسطورة لا تنتهي أبدا، وخرافة يرويها الكبير للصغير، ويعيدها السمار ليلا لتمضية الوقت في مقهى الأنس القريب من البلدة.

وفي تيهك وترحالك، يختفى شبحك في السراب، وظلمة كثيفة، تخبئ وراءها لغز اختفاء منير وموت الفقيه عبد الله، والخلاء شاهد على اختفائك عن الأعين. آه لو أمكن لهذا الخلاء أن يتكلم ويُحَدِّث، ويمعن في

البوح بأسراره، لو حدث ذلك لأخبر عن مكان وجودك، ولكنها السكينة التي غمرت الأرض وتركت ألغازا كبيرة تحوم حولك، والصمت المطبق يخيم على الأجواء، ويخترق فضاء الأفق. وها هي الطمأنينة تغمر الخلاء وتحيله سرابا لاحياة فيه، وعلامات استفهام كبيرة حول مصيرك.

تغيرت أحوال البلدة في غيابك، واستقبلت أجواء العيد في فتور، بدا كباقي الأيام لا جديد فيه، سوى عودة المسافرين الذين طال غيابهم وتشابه مع غيابك.

القرويون المساكين، البسطاء، يتقنون لعبة الاختفاء في الظلال تحت أشجار النخيل، يهربون من واقع بئيس، غالبيتهم أميّون بالكاد يعرفون القراءة والكتابة، ينصرفون إلى أعمالهم اليومية التي تضمن لهم العيش، وهي أعمال بسيطة يقومون بها في حقولهم وأراضيهم. هاجر معظم شباب البلدة بحثا عن عمل، يطول غيابهم طيلة السنة، ثم يأتون في يوم عيد الأضحى محملين بالهدايا لعائلاتهم، يتفاخرون بلباسهم، سراويل الجينز الممزقة والأقمصة عليها أشهر الماركات العالمية وأسماء اللاعبين الأوروبيين، قصات شعرهم غريبة، ومضحكة أحيانا، يقتنون دراجات نارية ويتسكعون بها طيلة اليوم في الطرقات، يفضلون قضاء أغلب أوقاتهم في التسابق بدراجاتهم النارية، مستعرضين مهاراتهم في السياقة، يزعجون الساكنة بضجيجهم المعهود. إنهم

شباب مراهقون وطائشون بدون أدنى إحساس بتحمل أي مسؤولية، شباب ضائع بدون قضية.

تتلاشى فرحة العيد شيئا فشيئا وتضمحل نشوة الناس، لتحل محلها الكآبة والضجر، ويتبدى الملل في إيقاع رتيب يوجه الحياة نحو نهاية حتمية لا معنى لها، يؤثثها فراغ مهول يجثم على النفوس والقلوب.

23

وجدت سعيدا جالسا في المقهى كالمعتاد، لابد أنه أنهى عمله، وهو الآن في عملية مطاردة لزبائنه الجدد، وكان من عادته استقبال السياح في هذا المكان. وأخذهم في جولة للتعرف على قصور وواحات البلدة، تساعده طلاقة لسانه وتجربته الكبيرة في استقطاب الأجانب، وهي خبرة توفرت فيه وقد استطاع تكوينها خلال السنوات الماضية.

مددت له يدي مصافحا:

_ أخي سعيد، كيف حالك أيها العزيز:

_ مرحبا أخي محمد، أهلا بك، سررت بمجيئك:

_ تفضل اجلس.

شكرته وجلست بجانبه.

ثم دار بيننا نقاش طويل، حول الكثير من قضايا البلد، طاف بنا الحديث وألقى بنا في جزر السؤال عن الأهل وأحوال البلدة، وحمى الانتخابات، فرأيناه موضوعا جديرا بالمناقشة، سألته:

_ في نظرك أخي سعيد أي الأحزاب أثير لديك في البلدة؟

-أنت تعرف أن حملة مسعورة للانتخابات تعيشها البلدة الآن.

صمت برهة يفكر، ثم قال:

_ اسمع يا أخي محمد، أنت تعرف الصراع الكبير الدائر بين بلدتنا والقرى المجاورة لها، وهو الصراع نفسه الذي عَمَّقَ المشكل وجعل الانتخابات تلعب ضدنا للمرة الثانية، وتعرف كذلك أن شعارات الأحزاب لا تعني لنا شيئا، فرموز الوردة والمصباح والفيل والحصان و الحمامة كلها رموز وشعارات لا علاقة لأهل البلد بها، فمن الذي سيطبق مثلا مبادئ الاشتراكية في بلدنا؟ وهل سيساعد هذا الصراع بين الدواوير على تطبيقها؟ ذلك مستحيل صديقي مبدئيا على أرض الواقع.

ومن جهة أخرى فبلدتنا عكس الدواوير الأخرى، يتمتع رجالها بكفاءة عالية، مثل اسي أحمد و غيره من الموظفين الذين يشتغلون في قطاع السياحة والبريد والبلدية.

هل تعرف صديقي أن الدواوير الأخرى تشكل الأغلبية وأن الأمر حتى لو جرى بشكل ديمقراطي، سينصبون واحدا منهم، هذا أمر سيحدث لا محالة.

علقت عليه على الفور:

_ كلامك صحيح صديقي، غالبية ساكنة الدواوير البعيدة لا تفهم في الشعارات شيئا، لكن دوركم باعتباركم مثقفين يجب أن يظهر في هذه المرحلة، لتوعية أهل هذه الدواوير بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقهم.

_ أوافقك الرأي صديقي محمد، سيتحقق شرط تطبيق الاشتراكية عندما يعي هؤلاء حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، ويعملون على ترشيح شخص مثقف

يملك كفاءة عالية لتسيير شؤونهم، الجميع متحمس للتغيير صديقي، لكن بأية طريقة سيتم هذا الأمر، لأن الجميع يعاني من الأمية، فعندما يتحرك الأمي والجاهل في سبيل التغيير يصبح كل ما يفعله مجرد فوضى وعشوائية.

قاطعته قائلا:

_ في الحقيقة صديقي، كل ما قلته صحيح، فبعض المرشحين من هؤلاء لا تهمهم سوى مصالحهم الشخصية، لهذا يصرون على الترشح كل مرة، بنفس الشكل وبنفس الكيفية.

ضحك سعيد بسخرية مبطنة ثم قال:

_ هؤلاء هم الذين يقفون عقبة أمام التغيير في بلدنا، فماذا نصنع يا صديقي؟ إذا كنا محاطين بأغلبية من الأغبياء، السذج، تمنح أصواتها لهذه العقليات المتحجرة. إن التغيير يحتاج إلى سواعد لا تمل ولا تكل في نشر الوعي بين الناس، شباب واع، قادر على تسيير البلد. أما أن نقوم بترشيح نفس الشخص الخطأ في نفس المنصب، فهذا يعني أننا سنتأخر سنوات أخرى في التنمية.

قلت: آه نعم التنمية، ذكرتني بالمشروع التنموي في البلد، ما أخباره؟

_ المشروع التنموي يا صديقي، هو مجرد حبر على ورق فقط، هل تعتقد أن هناك من سيعمل لمصلحة البلد بدون مقابل، أؤكد لك صديقي أننا سنكون سذجا عندما نتوهم ذلك، خطة المشروع التنموي في يد أولئك

الذين يستثمرون بأموالهم، ولن يتم تنفيذ هذا المشروع دون إذنهم، وإذا كنا نعتقد أنهم سيفضلون مصالح الفلاح الصغير على مصالحهم الشخصية، فنحن نعيش المثالية. لا توجد هناك سوى حقيقة واحدة، هي: أن يتم انتخاب الاشتراكيين الذين لهم القدرة على إيجاد مقاربة لتنزيل المشروع التنموي، شريطة تعاون الجميع، أما في حالتنا، عندما يتم حصر الاشتراكيين والاستقلاليين في خندق والتضييق عليهم، وإخلاء الساحة لمنافسة أصحاب النفوذ، فإن الأمر لا يعدو أن يكون مغامرة غير محسوبة العواقب.

24

أراني الآن غائبا في مغارة بعيدة هناك تنحدر في الجبل، تبلعني في صمت، أراني الآن فاقد الإحساس ، كذكرى من زمن ولى، كحلم ميت، عائد إلى طفولتي، لا معنى لي الآن.

أختبئ هنا كجرذ مذعور، وإحساس بالخوف والوهن يهزمني، لا أعرف ممن كنت خائفا، لكنني كنت كذلك. أرى صورة الدم على كفي وعلى منجلي وفي الأرض، دم أحمر قان، بدا لي كابوسا مرعبا يجثم على أنفاسي، يقتلني آلاف المرات. رأيت صورهم واحدا تلو الآخر، كان الأول وجه عبد العزيز من رأسه المتدلي، شابت لحيته وأصبحت بيضاء بعد أن كانت سوداء، ووجه طيف آخر، خمنت أنه منير، بدا هذه المرة حزينا ينظر إلي في وجوم، يبدو جميلا رغم كآبته، يرسل نظرات استنكار باتجاهي، يخيل أنه يعاتبني، لكنه كان عتابا لذيذا. ملاك يمشي على الأرض في خفة ورشاقة.

أنا الآن وحيد ولا عزاء لي بعد اختفاء أطيافي في الظلمة، أنا الآن لا شيء، أعيش وحدتي القاسية في صمت، أعيشها بكل تفاصيلها المملة، أعد نتوءات المغارة.

ما أسوء أن يعيش الإنسان وحيدا منعزلا، إحساس مرير بالوحدة والضياع !

أحث الخطى، أدلف للخروج من المغارة، فقد امتد المكان كقبر مهجور يضيق علي ويخنقني. أسير عبر الممرات والمسالك، أتخطى الفراغ، وأتجاوز الظلمة، أسبح في مياه باطنية، أنا الآن دودة الأرض، فراشي التراب، أتغلف بالندى.

الظلمة والمياه والأتربة والصخور السوداء، أغوص بأقدامي في مياه البركة، أشعر ببرودة تسري في أوصافي، تتصاعد شيئا فشيئا، تتسلل إلى قلبي التعيس، أمتطي صهوة الجبل، تمنيت لو أصرخ من أعماق قلبي، فأقول:

أنا المختار بومنجل، أنا المختار يا أهل البلدة، أنا حي، أنقذوني!

ولكن طريق العودة مستحيل، الخوف يتملكني، يشعرني بالندم، أنا قتلت عبد العزيز، نعم أنا قتلت عبد العزيز الطيب، غرست فيه منجلي. نعم أنا قتلت عبدالعزيز، أشعر الآن بالحسرة، أسقى من كأس الندامة.

أستفيق من حلمي مرعوبا، أشعر بخيانة العالم، وتواطؤ الشيخ اسعيد والقبيلة. وجسد عبد العزيز ملقى هناك في إهمال وقد انفصل عنه رأسه، و هو يضحك في

غير اهتمام ولا مبالاة أشعر بالندم والجريمة. ومنجلي الأيسر البريء يلمع في الظلمة.

والعتمة تكسر غضب الصمت، ومنير الآن بدأ يضحك، كم هي جميلة تلك الضحكة البريئة؟ وذلك الثغر والأسنان البيضاء المستقيمة اللامعة، من يشعر بالخوف في حضرتك يا منير؟ من يشعر بالوحشة؟

أن الآن جسد بلا روح، قلب بلا إحساس، أستيقظ لأحلم، وأحلم لأستيقظ، تشابهت أحلامي بالحقيقة.

25

لم يحدث شيء جديد يدعو للفت الانتباه، فقد تناسى الناس قضية الاختفاء أو كادوا يفعلون في غمرة انشغالاتهم، بعد أن مرت عليها سنة كاملة، اختفاء منير والمختار وموت مي نعيمة المسكينة، كلها أحداث أصبحت من عداد الماضي، ولا جديد يذكر، سوى ترهات وخرافات الرعاة، الذين كانوا يجوسون الوديان والفيافي والجبال بحذر شديد. يؤدون مهمتهم ويشترطون أثمنة خيالية وأحيانا مبالغ فيها، ضاق بها ذرعا من انتدبوهم لتلك المهمة من أعيان التجار وشيوخ القبيلة. حتى أصبحت مهنة الرعي على وشك الانقراض، بسبب الشروط المتزايدة والمبالغ فيها للرعاة و ثرثرتهم الزائدة عن اللزوم، وحكاياتهم المثبطة لهمم وعزائم الرعاة الجدد من الشبان الذين أصبحوا يخشون على أرواحهم من الأخطار ومن الأرواح الشريرة التي تسكن خلف الجبل، والتي تسببت حسب فهمهم في اختطاف منير والمختار. كعقاب لهم على جسارتهم وشجاعتهم.

وقد تقلصت ساعات الرعي لتشمل نصف النهار، بعد أن كانت تمتد لأيام وأسابيع معدودة، ولا يقوم بها غير الرجال الأقوياء من أمثال حماد والعربي وعلي ومحمد وغيرهم. الذين يضمن الأعيان عودتهم لأهاليهم.

وأصبح التجار الكبار والشيوخ الأعيان مالكي المواشي يشترطون مؤهلات خاصة فيمن ينتدبونهم لرعي مواشيهم، منها القوة والجسارة والإقدام، والقدرة على ارتياد الأماكن الخصبة التي تضمن الكلأ الوفير للماشية، وكانوا يراقبونهم بسياراتهم خشية عدم القيام بذلك على أكمل وجه. وكان الرعاة يشعرون بضيق المراقبة التي صعبت عليهم العمل وجعلته تحت الضغط والمراقبة الدائمة، حرمتهم من قيلولتهم وخلودهم للنوم والراحة لبعض الوقت.

أنشأ المهدي وأصدقاؤه جمعية لتربية المواشي " الدمان"، محاولين الهروب من شبح البطالة المخيف، وقد استقدموا معهم شبان البلدة ليساعدوهم في هذا العمل النبيل، ويقوموا على استغلال هبات الجمعيات والتعاونيات الخيرية، لمساعدة الشباب على القيام بمشاريعهم الشخصية، وتوزيع الأضاحي على الأسر المعوزة. غير أن المشروع أجهض في بداياته لعدم وجود سيولة مالية كافية، ليتمكن سعيد بفضل علاقاته المميزة مع الاتحاد الأوروبي وجمعيات التعاون الأجنبي بفضل عمله في المركز السياحي من جمع مبلغ مالي محترم، مكنهم من بداية متواضعة.

بدأ الأستاذ عبد السميع في التعافي تدريجيا من مرضه، بفضل مساعدة الأصدقاء، كما أنني منحته كتبه وبعض الأوراق والأقلام للكتابة، ورغم إعفائه من

العمل، إلا أنه لم يفقد حيويته ونشاطه، جعله ذلك يتجاوز مرحلته العصيبة بسلام. بدأ في الكتابة، دون أشعارا كما قال لي، وبدأ يكتب رواية عن معاناته في الدوار، لكنها أقرب إلى السيرة الذاتية من الرواية. لم أرغب في إزعاجه بملاحظاتي الواقعية، أنه لم يصل بعد إلى مستوى كتابة الرواية. فشجعته على الاستمرار في الكتابة، لأنها تساعده على الشفاء تدريجيا من مرضه. أو على الأقل ليحيا من جديد، لحسن حظه أنه وجد أهل الدوار كرماء وطيبون فمنحوه منزلا هجره أهله مدة، بعد الحكم عليه بالإفراغ من طرف مدير المدرسة للغرفة التي كان يسكن فيها في الفرعية. ضمن استقراره مؤقتا لكنه لم يعتني بمنزله الجديد، حيث الملابس والكتب ملقاة بلا ترتيب، في فوضى شديدة ومزعجة. خمنت أن العزوبية جزء من مشاكله اليومية في الدوار. فحال المعلمين والأساتذة في الفيافي والبوادي والدواوير أصبح مدعاة للشفقة، والسخرية أحيانا أخرى. وذلك جزء من منظومة تعليمية تعاني خللا وعطبا كبيرا، لا علاج له. كان الأستاذ عبد السميع المسكين أحد ضحاياه. بل كان نتيجة للقرارات العشوائية المتسرعة للحكومة في هذا القطاع الذي، أصبح ميؤوسا منه.

عثر على المختار مطروحا في الطريق مرة أخرى، كان غائبا عن الوعي كالعادة، قمنا بإحضاره إلى مركز الشرطة للتحقيق معه في التهم الموجهة إليه، لاحظنا عليه أنه لا يستطيع الكلام، كان يكتفي بالإشارات فقط،

مما زاد في حيرتنا، وبعد ساعة قدمت الشرطة لتأخذه منا، فقد جاءتنا برقية من السيد العميد، تخبرنا بضرورة تسليمه لرجال الشرطة و شرطة مكافحة الجريمة، ففعلنا ذلك وسلمناه حالا، أمام امتعاض القائد الذي لم يرقه هذا التصرف، فقد كان يرغب في جمع بعض المعلومات ونقلها إلى مسؤوله المباشر، لكن رجال الشرطة باغتوه فجأة، وأخذوا منا المختار.

استمر تواجده في ضيافة رجال الشرطة لأسابيع، وكأن القضية ما وجدت في الأصل، قمنا بنسخ التقارير ومحاضر القضية وإرسالها بناء على طلب السيد العميد، وانتظرنا طويلا، مضى شهر وكان طويلا متعبا من شدة الانتظار، إلى أن قدمت سيارة شرطة عادية سوداء اللون، وألقت لنا بالمختار، مع توصية بإطلاق سراحه، كان شاحب الوجه، ويبدو أنه تعرض للضرب واللكم على الوجه، وبقي في زنزانة لم ير الشمس قط، كانوا يحاولون إرغامه على الكلام، لكنه لم يستطع ذلك، وكانوا يرغبون في معرفة أسرار علاقته بالفقيه والتجار الذين كانوا يساومون الفقيه عبد الله، ومصير الفتى منير الذي لم يعثر له على أثر لحد اللحظة، لكنهم لم يعثروا على جواب لأسئلتهم. فقد المختار الكلام، مرض وتعب، ولم يستطع مجاراتهم، ولما يئسوا منه تركوه، وأحضروه لنا بعد أن أصبح كتلة باردة من اللحم، أو خرقة بالية لا تصلح لشيء. حملناه إلى منزل أخيه المهدي، وحفظت التهم الموجه إليه، ويبدو أن حتى جريمة القتل الخطأ لم

تأخذ بعين الاعتبار، فقد كلفونا بإعطاء فدية فيها قدر من المال لأم المقتول عبد العزيز، ويبدوا أنهم عجزوا عن مواجهة القاضي، الذي امتلك أدلة براءته، بالقتل الخطأ وهو مجنون فاقد علقه، ساعده في تقديره ذاك الشهود على عجزه وشهادة الطبيب الذي صرح له بذلك، وبضرورة تركه وشأنه.

ظل المختار أياما على تلك الحال، وبدأت حالته تتحسن، غير أنه لازال أخرسا، لا قدرة له على الكلام، ذات يوم اتصل بي سعيد، وكان اتصالا مفاجئا في منتصف الليل، حدد معي موعدا ليخبرني بتفاصيل جديدة تخص قضية المختار، كان الموعد في الغد على الساعة الحادية عشر في مقهى المدينة في البلدة، حتى نكون في مأمن من الفضوليين، أخبرني أنه سيحضر لي مفاجأة، غابت عني عندما كانت القضية بين يدي قبل أن يتم تسليمها لرجال الشرطة الأمنيين.

في صباح اليوم الموالي، كنت أنتظر سعيدا في المقهى المحدد، قبل الساعة الحادية عشر، وبعد نصف ساعة قدم سعيد، وكانت المفاجأة أن أحضر معه المختار، تعانقنا من جديد، واسترسلنا في الحديث الذي أخذنا معه إلى ذكريات مكوثي في البلدة، التي جعلتني أعشق أهلها الطيبين.

تكلم المختار، واستغربت ذلك، غير أن سعيدا حاول إزالة الدهشة التي تملكتني بقوله:

_ إنه يتكلم يا أخي محمد، لم يعد أخرسا كما كان من قبله، لقد أحضرته لك ليحكي لك كل شيء، يتعلق بمنير وفرضيات الاختفاء التي لم تستطع فهمها. ها هو أمامك اسأله، ستجد كل الأجوبة الشافية لقضية الاختفاء المزعومة.

تناولنا الشاي، والفطور، ثم قدمنا سيجارة فخمة للمختار، الذي دخن بشراهة وأخذ نفسا عميقا قبل أن يبدأ في سرد حكاية اختفائه العجيبة.

26

منذ عودتي الغريبة من المنحدر، وأنا طريح الفراش، أشعر أنني ميت فاقد للحياة، ميت فوق الأرض كجذع نخلة ضائع طوحت به الريح بعيدا.

أشعر أنني شخص آخر لا علاقة له بالمختار الطفل، غريب حل بالبلدة. وجدوني هناك في الطريق، منبطحا فوق الأرض، وحملوني لأكون ولدهم من جديد. وأطلقوا علي لقبا جديدا، ذلك الذي ينعتني به أهل البلدة:

"بومنجل... المختار بومنجل".

تراودني كوابيس الدم والموت والجريمة، يتهيأ لي في كوابيسي المرعبة وأحلامي المزعجة أنني أحمل منجلي الأيسر الحاد، وهو ملطخ بالدماء الحمراء القانية، وهو يتراقص في السماء، يفتك بشخص ما مقيد أمامي، كان شبحا جميلا في الخلاء، وجها مشرقا، يبدو لي مألوفا ، وأحدهم يغريني بقتله، وأحيانا تتراءى لي صورة منير، ذلك الفتى مشرق الوجه. بهي الطلعة، جميل القوام، عذب الحديث.

يرجوني بصوته العذب المبحوح، يصرخ بأعلى صوته، كمن سقط في بئر عميقة مظلمة يشير لي أن أفك قيده وأطلق سراحه ليهرب ويفلت من الموت، لكن

مصيره المحتوم يطلبه، وتعاويذ الرجل ورائي تزيد من حدة اندفاعي، تعاويذ تدفعني لارتكاب القتل، وتعذيب الشبح الماثل أمامي، نظراته اليائسة تضيع في الفراغ، والوحشة تبتلع صوته، وصراخه يخترق طبلة أذني كأغنية لبنانية رومانسية تنبعث من جهاز راديو قديم.

إنهم يقتلونني آلاف المرات، كما قتلوك يا منير، كنت أشتهي قربك ووصالك، أنا التائه المعجب بك، وبروحك العذبة، كان أهل البلدة يتحدثون عن جمالك الظاهر، فيقولون، ورث الجمال ابن نعيمة.

يا ولاد القبيلة

الزين دااااه ولد نعيمة

الزين دااااه ولد نعيمة

استعذبت حديثهم عنك، دافعت عنك أمام تحرش الشبان والصبيان، كنت أحبك، وأراك ولدا صالحا، فلازمتك، ولزمتني لأنني أحميك من مضايقتهم، ذهبت معي، اخترتني صديقا لك لأنك تطمئن لي، كنت تحب قوتي وصرامتي في الاعتناء بالمواشي، التي تشق معي طريقا واحد، لا اعوجاج فيه، أسخر عصاي لتكون سياطا لهم، عذاب يألفونه، فيعرفونه، كانت تبهرك ابتسامتي رغم ما نحن فيه من تعب، وكنت معجبا بقوتي وصبري المعهود، فقد كنت أحبك، وأظهر لك سعادتي بالقرب منك، أنا الآن امتلكك، وسأمتلكك إلى الأبد.

راودني ذلك الحلم المزعج، رأيتني أسلك طريق الخلاء الموحش معك، وأنا سعيد بقربك، لكن الآن لست

سعيدا بذلك، فما الذي غيرني لأجلك، أنا نفسي لا أعرف الحقيقة، كل ما أعرف هو أن الرغبة تولدت في جوانحي لقتلك، والنيل منه.

من قال أن نهايتك ستكون على يدي، ومن قال أن أولئك الحمقى سيصدقون فرضية جنوني، سأدعي أنني مجنون، أصابني مس، فأودى بي.

وأسمع أهل الدوار يقولون:

" تاه المختار في أرض الله وجن فيها".

الرواية الغبية التي شرعنت لي قتلك والتنكيل بك، وقتل أطفال آخرين قبلك.

رأيت أنني قدمتك لصداقتنا الخالدة قربانا،

وسيستخرجون الذهب الخالص بجسدك الجميل.

يلوك الأهالي الذين لا شغل لهم خبر اختفائك، ويقولون أنك فارقت الحياة بسبب العطش، أو أن جنيا اختطفك.

سيصدقون حكايتي البلهاء، وهم يعرفون أنني مجنون كما ذكر لهم ذلك الفقيه عبد الله وهم يحفظون كلامه عن ظهر قلب.

سيتواطأ عليك قدرك، كما تواطأنا عليك، أنا والفقيهان والخلاء الموحش وأهل البلدة، وسيقولون أنت شهيد الطبيعة، ويترحمون على روحك الطاهرة، ويدعون لي بالشفاء.

أنت قدري المحتوم الذي لا مهرب منه، ماذا سيفيد استجداؤك؟ ومصيرك بين يدي، لا فرق بين قتلي لك أو تركك.. فأنا مجنون في أعراف القبيلة.

27

لم أكن أدري ما أقول ومنير نائم بجانبي، فقد ساد بيننا صمت مريب، في اللحظة التي كنت فيها أناجيه، كان القمر يتوسط السماء في تلك الليلة المشؤومة، وكان وجه منير مشرقا كالبدر ليلة التمام، أحببت هذا الفتى بصدق، عشقت قربه، والجلوس بجانبه، غير أن أفكارا مبعثرة، شوشت ذهني، وأفسدت علي قضاء آخر لحظة بجانبه، كنت سعيدا بالقرب منه، متيما به حد الهوس.

تذكرت ما وقع خلال أيام في منزل الشيخ اسعيد، فبلعت ريقي بصعوبة بالغة، كنت متيقنا أن فقهاء سوس الذئاب سيمرون غذا من هذا المكان في الصباح الباكر، استحضرت حديثهم مع الشيخ في ذلك الأمر، عندما أقنعوه بضرورة اصطحاب منير معهم، وكان الفقيه عبد الله حاضرا، ذلك الشيطان الذي استطاع انتزاع موافقة الشيخ بأن يسلمهم منيرا ابن نعيمة، يستخرجون به الكنز الذي سيجعلهم أغنياء، وكيف اشترط عليهم الشيخ عدم إلحاق الأذى به، وهو يذعن لهم في صمت محير، تم الاتفاق على أن أصحب معي منير إلى هذا الخلاء وسيلحقون بي فيما بعد، لتنفيذ المهمة. سألتقيهم هنا مع الحفار الذي كان برفقتهم، ذلك الذئب الذي لم أطمئن لرؤيته منذ وقعت عيني عليه، كان يرتدي جلبابا أسودا

متسخا، تظهر عليه علامات الفقر والتسول. كان رجلا مقيتا بغيضا، شريرا بطبعه.

أيقظني نداء منير من شرودي، قائلا:

ما بك يا المختار؟

لماذا أنت شارد هكذا؟ هل تعاني من خطب ما؟

قل لي ماذا بك يا المختار؟

لا شيء، يا منير، لا شيء البتة، أنا فقط متعب قليلا.

حرام عليك يا صديقي، فأنا صديقك الوفي، هلا قلت لي ما الذي يقلقك؟

تابع حديثك، يا منير فأنا سعيد بجانبك، لا تقلق بشأني.

قال لي:

اسمع يا المختار، سأخبرك بسر خطير، لا تبح به لأحد، فأنت صديقي الوفي وأثق فيك كثيرا، ومن فرط حبي لم أصادق أحدا غيرك، سأبوح لك بسر احفظه عندك.

انتفضت بقوة، بعد سماع الكلمات الأخيرة، نزلت علي كالصاعقة، الوفاء، الصداقة، الثقة، الحب، كف عن هذا يا منير أرجوك. فأنت تذبحني بهذه الكلمات، ليتك

تعلم ماذا ينتظرك غذا، وهذا الجبان أمامك عاجز على إنقاذك. ليتك تعلم أن صديقك شيطان سخرته شياطين الإنس ليقودك نحو هلاكك وحتفك.

أنت تقتلني آلاف المرات بكلامك كما قتلوني قبلك، كبلوني بتعاويذهم لأحضرك.

كنت أرغب في أن أصرخ بأعلى صوتي، أقول له:

أرجوك لا تقل هذا يا منير، فأنت تذبحني بسكين كلماتك.

لكنه تابع، دون أن يعيرني اهتماما، كأنني غير موجود:

اسمع يا المختار، أنصت لي جيدا، أنا شخص غير عادي جدا، خارق للعادة، أحلم بأشياء تقع مستقبلا، وأرى كائنات هلامية لا تراها أنت، هي في خدمتي الآن، اطمئن يا المختار لن يصيبك أي مكروه، فأنت تحت حمايتي الآن، دعني أتحدث فقط، وأخبرك بكل شيء، راودني حلم غريب في الظهيرة، ظننت أنها رؤيا شيطان لكنها كانت حقيقة، وستقع لا محالة، حلمت أنني مشدود إلى جذع نخلة في الخلاء، وجدتك أمامي وجها لوجه، حاملا معك منجلك الأيسر، كنت أتوسل إليك أن تبعده، فرفضت، حاولت غرس منجلك في بطني، لكن شيئا ما حال دون ذلك، سمعتك تصرخ بقوة والدم ينساب

من عروق يدك.. فاستفقت من نومي مذعورا ووجدتك نائما بجانبي في سباتك العميق.

اندهشت مما سمعت وانعقد لساني، فقدت القدرة على الكلام.

ربت منير على كتفي وهو يقول:

لا تقلق يا المختار، لن أموت على يدك، ولن يصيبك مكروه، لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، أنا لا أخاف من الموت، إن حدث ذلك فسيكون بمشيئة الله، اطمئن فأنت في رعايته وحفظه.

مد يده وأخرج من جرابه كتابا، حاولت تبينه في العتمة، فعرفت أنه القرآن الكريم، كان صغير الحجم، احتفظ به منير بشكل مدهش.

قال لي في انشراح:

احتفظ به يا المختار وتذكرني به، ضمه إلى صدرك، وأذكر الله في نفسك، أطلب منه أن يعينك، تعرف عليه في الرخاء يعرفك في الشدة، أذكر الله لأنك ستحتاجه عندما تقع في ورطة.

وقبل أن افتح فمي، سبقني بالقول:

لا تقل شيئا، نم مطمئنا فقط، ودع أمرك كله لله.

استلقيت من فرط الدهشة والهلع والخوف، خارت قواي تماما، كان كلامه نافذا إلى أعماقي كالسيف، رغم أني استعذبت سماعه، فكرت في الغد، وكرهت قدومه، آه ليت الزمن يرجع إلى الوراء. سمعت شخير منير، كان مطمئنا في نومه بشكل لا يصدق.

نام وترك حبال التفكير تستبد بمخيلتي وتحيلني ذاتا ضائعة، شبح مهزوم كخفاش الليل معلق في جدران الظلام.

آه يا منير، ليتك تعلم ما سيحل بك غدا، عندما يأتون ليشدوا وثاقك، ويجردوك من ملابسك، ويسومونك العذاب، فأنت في نظرهم مجرد قربان يستخرجون به الكنز المدفون، سيذبحونك هنا يا ابن نعيمة، ويلقون بجسدك الطاهر إليهم، لقد أعطاهم الشيخ الإشارة، وأخذ منهم الأمان في عدم قتلك، ولكن الذئاب لا أمان ولا عهد لهم.

راودتني فكرة الهروب للنجاة بنفسي، لكنني وجدت أنها فكرة سخيفة، فكيف أهرب وأترك منيرا وحيدا مع الذئاب.

سأبقى هنا مستسلما لقدري المحتوم، كرجل ينتظر حبل المشنقة تلتف على عنقه، فما باليد حيلة.

داهمني النوم بغتة، واستفقت على صوت صراخ وجلبة أفزعتني من نومي.

رأيت منيرا مقيدا يجلس على ركبتيه، كان المسكين يرتعد من شدة الخوف، وأمامه انتصب الحفار المعتوه بجلبابه الأسود البغيض وفأسه الحادة، وقد أمسك بمقبضه ينتظر الأوامر، وفي الجهة المقابلة لمحت الفقيهين، أحدهما كان واقفا والآخر جالس يتمتم تعاويذ وكلاما غير واضح.

اقترب الرجل الواقف أمامي، وهو يرشني بالماء، ثم أعطاني سكينا وأمرني بالقيام، والوقوف أمامه.

وبعد أن انتهى الرجل الثاني من تعاويذه، وإشعال بخور "الجاوي" واللوبان في مجمر أحضره معه، أمروني بأن أتجه نحو منير وأغرس فيه هذا السكين، فامتنعت، وفي الحقيقة كان ترددي يعني الرفض والعصيان.

قلت لهم بأن يتركوا منيرا وشأنه، وأن يذبحوني مكانه، فأنا مستعد لأجعل من نفسي قربانا لأجلهم، هو وحيد أمه وتخاف عليه، أما أنا فلا أحد سيبكي علي، لكنهم رفضوا ذلك.

قال لي الرجل الثاني في غضب، ويبدو أنني استنفذت صبرهم.

من تظن نفسك أيها المعتوه، ألم تحضر اتفاقنا، وتقبل به، أنسيت أيها الوغد أنك قبلت أن تحضر لنا صديقك هذا، يا لك من حقير! والله لولا أننا كنا في عجلة من أمرنا، لسلطت عليك هذا الجني يقتلك في هذه اللحظة، أيها المعتوه الجبان، ابتلينا بك.

كان منير يسمع هذا الكلام في دهشة، كان يسمع خيانتي وليته ما سمع، تخيلت أنه فاقد السمع، وتمنيت في قرارة نفسي أن أتحول إلى حشرة حقيرة فتخسف بي الأرض. فسحقا لي عندما فكرت في خيانة صديقي الوحيد الذي كنت أحبه.

تدخل الرجل الواقف كأنه يريد تلطيف الجو المكهرب بيننا، فقال:

اسمع يا المختار، سنلجأ إلى الخطة الثانية، وفيها خير لك أنت وصديقك، كل ما عليك القيام هو أن تفك قيد صديقك وتضع في يده التميمة بنفسك ثم تسير به نحو هذا المكان، وأشار إليه بسبابته، كان البخور قد ملأ المكان. وأعتقد أنه كان يقصد مروري منه أنا ومنير.

أعطوني التميمة، فأسرعت نحو منير، أحرر قيوده، بينما ابتعد الحفار الوغد الذي كان يستعد للحفر، حاملا فأسه الحادة.

وبينما أنا منهمك في فك قيود منير، سمعته يحذرني، التفت فرأيت الحفار قادما نحوي يريد أن يهوي بالفأس على رأسي، أمسكت به بكلتا يدي، واشتبكت أيدينا في الفراغ.

وجدت الحفار فوقي يصارع يدي القوية، فكرت في ضربه، أو شجه بحجر لكنني لم أستطع إيجاده، كانت يدي تدور في الفراغ، تمكن مني اللعين، هوى بقفا المعول على رأسي فغبت عن الوعي.

حدث ما حدث بالتفصيل، وكان ذلك آخر لقاء لي مع الفتى منير.

انعقد لساني لسماع هذا الكلام، فلم أكن أتوقعه، فقد كان الفقيه عبد الله بعيدا عن الشبهات، غير أنني استجمعت قواي وقلت للمختار، لماذا لم تبلغني بالأمر من قبل، رد علي أنه، كان خائفا من جور الشيخ اسعيد وسحر الفقيه عبد الله، غير أنه قال لي بأن الشيخ اسعيد ندم على ما فعله مع منير وخادمته مي نعيمة، ما جعله يقيم حلقات الذكر تكفيرا لما فعله، لقد ندم ندما شديدا.

ونبهني المختار على حين غفلة، من أن أعيد نبش الماضي، قائلا بأنه يريد إخباري بذلك لأنني كنت حائرا في حكايته، وأنه علي أن ألتزم الصمت، وأذهب إلى حال سبيلي بعد الانتقال من البلدة.

نظرت في وجه سعيد، فقرأت في تعابير وجهه ما يؤكد لي ذلك. لم ينبس أحد منا بكلمة.. توادعنا في صمت دامع.. وانصرفنا.. كل في طريق.

إصدارات عبور

ــ وضوء العطر لــ علي أخشاب/ هايكو.

ــ جرح لمحبة لــ مصطفى الشقوري/ زجل.

ــ أرض لا تصلح للحب لـ مصطفى ملح/ شعر.

ــ الزومبي19 لـ سعدية بلكارح/ رواية.

ــ كأي غاو لـ مصطفى قلوشي/ شعر.

ــ صخب السكون لـ عائشة موموش/ شعر.

ــ أيتها اللاءات لـ بشرى بودينار/ شعر.

ــ كرياح الخماسين لـ رشيد طالبي علوي/ شعر.

ــ أنت سيء الحظ لـ عبد السلام كشتير/ رواية.

ــ إلى النور لـ حرية المرنيسي/ هايكو.

ــ أنشودة الرحيل لـ محمد دومو/ شعر.

ــ غربة ناي لـ مجيدة البالي/ شعر.

ــ قبلات مقدسة لـ احمد العراف/ رواية.

ــ أنا وحبيبتي والله والشيطان لـ طارق مخوتي/ شعر.

ــ ستائر حالمة لـ لحسن أيت بها/ شعر.

ـــ ملامح القصيدة الأمازيغية في الأطلس المتوسط لـ محمد الغازولي/ دراسة.

ـ بحر الأسرار لـ عمر مصطفى بوعزيز / شعر

ـ تأبين جمان ل منير تمازيغت / نصوص قصيرة جد